

السنابل
الروايات المشهورة
مونفليت

# مونفلیت





© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة


| الطبعة الثانية |
| --- |
| رقم الإيداع : ٢٢٨٩ / ٨٨ |
| الترقيم الدولى : ٢-٤٧-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN |

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة




الروايات المشهورة




تأليف: ج. ميد فوكنر
إعداد: بهيّة كرم
رسوم: محمّد نبيل عبد العزيز

مكتبة لبنان
بيروت

# الفَصْلُ الأَوَّلُ

# قَرْيةُ مُونْفِليت

تَقَعُ قَرْيةُ مُونْفِليت عَلى الضِّفَّةِ الغَرْبيَّةِ لِنَهْرِ فليت، عَلى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنَ البَحْرِ. وَلَيْسَ النَّهْرُ سِوَى مَجْرًى مائيٍّ ضَيِّقٍ يَأْخُذُ في الاتِّساعِ، بَعيدًا عَنِ القَرْيَةِ، لِيُكَوِّنَ بُحَيْرَةً واسِعةً.

وَكُنْتُ في صِباي أَظُنُّ أَنَّ القَرْيَةَ سُمِّيَتْ بِاسْمِ مُونْفِليت لِأَنَّ ضَوْءَ القَمَرِ يَسْطَعُ مُتَأَلِّقًا على البُحَيْرةِ، ثُمَّ عَلِمْتُ فِيما بَعْدُ أَنَّ اسْمَها الحَقيقيَّ هُوَ «مُوهُونْفِليت» نِسْبةً إلى عائِلَةِ مُوهُون العَريقةِ الَّتي كانَتْ تَقْطُنُ هٰذِهِ المِنْطَقَةَ، وَحُرِّفَ الِاسْمُ إلى «مُونْفِليت».

أَمَّا أَنا فَأُسَمَّى جُون تِرِنْشارد، وَكُنْتُ أَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ خَمْسةَ عَشَرَ عامًا عِنْدَما بَدَأَتْ هٰذِهِ القِصَّةُ. وَكُنْتُ أُقيمُ مَعَ خالَتي الآنِسةِ أَرْنُولد لِأَنَّني يَتيمُ الأَبَوَيْنِ.

تَبْدَأُ القِصَّةُ في شِتاءِ عام ١٧٥٧م، حِينَ كُنْتُ أَقْرَأُ كِتابًا عَنْ عَلاءِ الدِّينِ والمِصْباحِ السِّحْرِيِّ، وَكَيْفَ أَغْلَقَ السَّاحِرُ عَلَيْهِ البابَ، لِأَنَّ عَلاءَ الدِّينِ رَفَضَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ المِصْباحَ. ذَكَّرَتْني القِصَّةُ بِتِلْكَ الأَحْلامِ المُزْعِجةِ الَّتي يَجِدُ فِيها المَرْءُ نَفْسَهُ داخِلَ حُجْرةٍ صَغيرةٍ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا.



تَوَقَّفْتُ عَنِ القِراءةِ وَخَرَجْتُ إلى الشَّارِعِ. وَلَمْ يَكُنِ الظَّلامُ قَدْ خَيَّمَ بَعْدُ، وَإنْ كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غَرَبَتْ. وَعَمَّ الكَوْنَ سُكونٌ عَميقٌ، لَمْ يَقْطَعْهُ سِوَى صَوْتِ طَرَقاتٍ خَفيفةٍ يَأْتي مِنْ بَعيدٍ، فَقَدْ كانَ راتْسي، حارِسُ المَقابِرِ، يَقومُ بِحَفْرِ اسْمِ أَحَدِ المَوْتَى على شاهِدِ قَبْرٍ.

كانَ راتْسي مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ، وَلَمَّا رَآني أُطِلُّ عَلَيْهِ مِنْ خِلالِ فُتْحةٍ بِبابِ بَيْتِهِ، ناداني قائِلًا: «أَهْلًا يا جُون! اُدْخُلْ وَأَمْسِكْ لِيَ المِصْباحَ.»

## داڤِيد بلُوك

السِّنُّ ١٥ عامًا - قُتِلَ بِرَصاصةٍ
أُطْلِقَتْ مِنَ السَّفِينةِ «إليكتور»
في ٢١ يونيه سَنة ١٧٥٧م

رَأَيْتُهُ يَنْقُشُ فَوْقَ الشَّاهِدِ صُورةً لِسَفينَتَيْنِ يَتَقاتَلُ رِجالُهُما، وَتَحْتَ الصُّورةِ نُقِشَتْ هذِهِ العِبارةُ.

كانَ الكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ داڤِيد المِسْكينِ - الابْنِ الوَحيدِ لإِلْزِڤِير بلُوك صاحِبِ فُنْدُقِ «وايْنَط».

في ذلِكَ الوَقْتِ كانَ يَتِمُّ جَمْعُ ضَريبةٍ باهِظةٍ لِلْمَلِكِ عَنِ البَضائِعِ الوارِدةِ لِلْبلادِ، فَكَثُرَ المُهَرِّبونَ الَّذينَ كانُوا يَتَهَرَّبونَ مِنْ دَفْعِها. وَكانَتِ السُّفُنُ المُحَمَّلةُ بِالبَضائِعِ تُفْرِغُ حُمولَتَها في أَماكِنَ غَيْرِ مَطْرُوقةٍ عَلى الشَّواطِئِ، وَمِنْها تُحْمَلُ البَضائِعُ في صَناديقَ وَبَراميلَ إلى مَخابِئَ داخِلَ البِلادِ. وَكانَ مُحَصِّلو الضَّرائِبِ الَّذينَ تُعَيِّنُهُمْ حُكومةُ المَلِكِ يَعْمَلونَ عَلى إِيْقافِ عَمَلِيَّاتِ التَّهْريبِ هذِهِ، يُساعِدُهُمْ في ذلِكَ رِجالُ خَفَرِ السَّواحِلِ.

كانَ إِلْزِڤِير أَحَدَ المُهَرِّبينَ، وَكانَتْ صُورةُ إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ المَنْقوشَتَيْنِ

عَلى القَبْرِ هيَ صُورةَ سَفينَتِهِ، عَلى حِينَ كانَتِ الأخْرَى صُورةَ سَفينَةِ خَفَرِ السَّواحِلِ.

وَكانَ أَحَدُ أَثْرياءِ القَرْيَةِ وَيُسَمَّى ماسْكيو قَدْ تَناوَلَتْهُ الإشاعاتُ الَّتي تَقولُ إنَّهُ هُوَ الَّذي كَشَفَ لِرِجالِ خَفَرِ السَّواحِلِ خُطَّةَ المُهَرِّبينَ، وَإنَّهُ كانَ مَعَ خَفَرِ السَّواحِلِ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ حِينَ قُتِلَ داڤيد.

وَقَفَ راتْسي بَعيدًا يَتَأَمَّلُ عَمَلَهُ ثُمَّ قالَ: «كَمْ هُوَ مُحْزِنٌ أَنْ يُقْتَلَ صَبيٌّ في مُقْتَبَلِ عُمْرِهِ. لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ثَلاثةً مِنَ المُهَرِّبينَ في السِّجْنِ يُنْتَظَرُ إعْدامُهُمْ يَوْمَ الإثْنَيْنِ المُقْبِلِ؛ لِذلِكَ سَأُلَوِّنُ العَلَمَ بِاللَّوْنِ الأَحْمَرِ وَسَأَطْلي السَّفِينَتَيْنِ بِاللَّوْنِ الأسْوَدِ. وَالآنَ هَيَّا بِنا إلى الفُنْدُقِ لِنواسيَ إلْزِڤِير، فَهُوَ غارِقٌ في بَحْرٍ عَميقٍ مِنَ الحُزْنِ وَالأَسَى.»

قُلْتُ: «هيَّا.» رَغْمَ أَنَّني كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ خالَتي لا تُوافِقُ عَلى دُخولي فُنْدُقَ «وايْنَط».

دَخَلْنا الفُنْدُقَ وَكانَتْ أَرْضُهُ مَفْروشَةً بِالرَّمْلِ، وَرُصَّتْ حَوْلَ جُدْرانِها كَراسٍ خَشَبيَّةٌ، وَفي جانِبِهِ الأَقْصَى كانَتِ النَّارُ المُشْتَعِلَةُ في المِدْفَأَةِ تَبْعَثُ الضَّوْءَ الوَحيدَ في الحُجْرَةِ.

جَلَسَ إلْزِڤِير قُرْبَ المِدْفَأَةِ، وكانَ مُمْتَلِئَ الجِسْمِ قَوِيًّا. وَكانَتْ مَعْرِفَتي بِهِ قَليلَةً، وَكانَ الكَثيرونَ يَتَعَجَّبونَ مِنَ احْتِفاظِهِ بِإدارةِ الفُنْدُقِ الَّذي لَمْ يَكُنْ

يُدِرُّ عَلَيْهِ رِبْحًا كافيًا.

الْتَفَتَ إِلَيْنا إِلْزِفِير بِغَضَبٍ، وَانْتَهَرَ راتْسي قائِلًا: «لِماذا أَحْضَرْتَ هذا الصَّبِيَّ إِلى هُنا؟ إِنَّهُ ما زالَ طِفْلًا.»

أَجابَ راتْسي: «جُون لَيْسَ طِفْلًا، كَما أَنَّهُ في سِنِّ داڤِيد، وَقَدْ كانَ مَعي يُعاوِنُني في نَحْتِ شاهِدِ القَبْرِ.»

قالَ إِلْزِفِير: «لا بَأْسَ. إِنَّ داڤِيد يَرْقُدُ الآنَ في سَلامٍ، وَلكِنِ الوَيْلُ كُلُّ الوَيْلِ لِمَنْ قَتَلُوهُ؛ فَلَنْ يَعْرِفوا السَّلامَ بَعْدَ الآنَ أَبَدًا.» وَكانَ دُونَ شَكٍّ يَعْني بِذَلِكَ السَّيِّدَ ماسْكيو.

اِنْهَمَكَ الرِّجالُ في الحَديثِ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ اِلْتَفَتَ إِلَيَّ إِلْزِفِير قائِلًا: «لَقَدْ حانَ وَقْتُ رُجوعِكَ لِلْبَيْتِ يا بُنَيَّ. إِنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَهيمُ في الطُّرُقاتِ لَيْلًا، وَلا أَحْسَبُكَ تُريدُ لُقْياهُ.»

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هذا -وَهوَ أَحَدُ رِجالِ أُسْرَةِ مُوهُون- مَدْفونًا في قَبْرٍ مُنْعَزِلٍ. وَكانَتْ أَقاويلُ النَّاسِ بِشَأْنِهِ كَثيرةً، فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في قَبْرِهِ، بَلْ يَهيمُ في اللَّيْلِ بِاسْتِمْرارٍ بَحْثًا عَنْ ماسَةٍ ثَمينَةٍ فَقَدَها في حَياتِهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَجْرُؤُ عَلى الاقْتِرابِ مِنَ القَبْرِ، بَعْدَ الغُروبِ، غَيْرُ عَدَدٍ قَليلٍ مِمَّنْ لا يَخافونَ مُلاقاتِهِ. وَقَدْ وُجِدَ رَجُلٌ مَقْتولٌ وَمُلْقًى في الطَّريقِ صَبيحَةَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ، وَاعْتَقَدَ الجَميعُ أَنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هُوَ الَّذي قَتَلَهُ.

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ -أَوْ جُون مُوهُون- رَئِيسًا لِلسِّجْنِ الَّذي وُضِعَ فِيهِ المَلِكُ تشارْلِز. وَكانَ لَدَى المَلِكِ ماسةٌ كَبِيرةٌ وَثَمِينةٌ، طَلَبَها مِنْهُ جُون مُوهُون نَظيرَ أَنْ يُسَهِّلَ لَهُ الهَرَبَ. فَسَلَّمَهُ المَلِكُ الماسةَ، وَلَكِنَّ جُون مُوهُون حَنِثَ بِوَعْدِهِ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَأَعادَهُ إلى السِّجْنِ.

وَعِنْدَما اكْتُشِفَتِ المُؤامَرةُ، صَدَرَ الأَمْرُ بِسَجْنِ جُون مُوهُون، إِلَّا أَنَّهُ فَرَّ هارِبًا بَعْدَ أَنْ خَبَّأَ الجَوْهَرةَ. وَيُقالُ إِنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ العُثُورِ عَلَيْها فيما بَعْدُ، أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الوُصولِ إلى المَكانِ الَّذي خَبَّأَها فِيهِ، وَلِذا كانَتْ رُوحُهُ تَهيمُ في الأَرْضِ لَيْلًا سَعْيًا وَراءَ الماسةِ المَفْقودةِ.

كُنْتُ كَثيرَ التَّرَدُّدِ عَلى فِناءِ المَقابِرِ، حَيْثُ كانَ مَنْظَرُ البَحْرِ يَبْدو رائِعًا مِنْ هُناكَ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخافُ السَّيْرَ لَيْلًا في هذا المَكانِ. وَفي ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ في إِحْدى اللَّيالي -وَكُنْتُ أَسْتَدْعي الطَّبيبَ لِخالَتي- أَبْصَرْتُ ضَوْءًا يَتَحَرَّكُ بَيْنَ القُبورِ. إِنَّهُ لَمِنَ الغَريبِ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ المَقْبَرةَ في مِثْلِ ذلِكَ الوَقْتِ!

# الفَصْلُ الثَّاني
# المُوهُون يَتَحَرَّكونَ

مَضَتْ بِضْعةُ أَيَّامٍ عَلى زيارَتي لِفُنْدُقِ الوايْنَط ساءَ خِلالَها الجَوُّ وَهَطَلَتْ أَمْطارٌ غَزيرةٌ سَبَّبَتْ فَيَضانَ النَّهْرِ، وَغَمَرَتِ المِياهُ جُزْءًا كبيرًا مِنَ القَرْيَةِ. وَلَكِنَّ المِياهَ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ سُورِ المَقابِرِ، فَبَقِيَتْ أَرْضُ الفِناءِ جافَّةً. وَفي يَوْمِ أَحَدٍ قُبَيْلَ الغُروبِ، كُنْتُ أَسيرُ مَعَ راتْسي، فَرَأَيْنا تَجَنُّبًا لِلْخَوْضِ في الشَّوارِعِ المَغْمورةِ بالمِياهِ - أَنْ نَعْبُرَ الفِناءَ لِلْوُصولِ إلى مَنْزِلَيْنا. وَالتَقَيْنا بالسَّيِّد جلِيني، وَوَقَفْنا بِجانِبِ أَحَدِ القُبورِ نَتَجاذَبُ مَعَهُ الحَديثَ. وَكانَ القَبْرُ مُرْتَفِعًا مِثْلَ مِنْضَدةٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ.

مالَتِ الشَّمْسُ نَحْوَ المَغيبِ، وظَهَرَتْ في السَّماءِ سُحُبٌ غَريبةُ الشَّكْلِ تَتَخَلَّلُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الحَمْراءُ، فَشَعَرْتُ بِرَهْبةٍ جَعَلَتْني أُمْسِكُ بِذِراعِ راتْسي لِأُخْبِرَهُ بِعَزْمي عَلى العَوْدَةِ لِلْمَنْزِلِ. وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا قَيَّدَني في مَكاني، وكانَ صادِرًا مِنْ باطِنِ الأَرْضِ، فَصَرَخَتِ العَجوزُ تكر، الَّتي كانَتْ تَقِفُ مَعَنا، قائِلةً: «يا إلَهي! إنَّهُمْ المُوهُون! المُوهُون يَتَحَرَّكونَ!» ثُمَّ فَرَّتْ هارِبةً.

قال السَّيِّدُ جلِيني: «ما هذا الهُراءُ؟» وَبَقِيَ في مَكانِهِ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ، وَعَلَّلَ سَبَبَ الصَّوْتِ بِوُجودِ قُبورٍ يَبْلُغُ اتِّساعُ بَعْضِها مِساحةَ غُرَفِ

فَسيحةٍ تَضُمُّ رُفاتَ أُسْرةٍ بِأَكْمَلِها، وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْها المِياهُ وَسَبَّبَتْ تَحَرُّكَ صَناديقِ المَوْتى الخَشَبيَّةِ فَأَحْدَثَتْ هذِهِ الأَصْواتَ الَّتي سَمِعْناها.

قالَ راتْسي: «قَدْ تكونُ على حَقٍّ يا سَيِّدُ جلِيني، وَلَكِنَّهُمْ يَقولونَ: «عِنْدَما يَتَحَرَّكُ المُوهُون فَهَذا يَعْني المَوْتَ لِشَخْصٍ ما.»

قالَ جلِيني: «إذا تَحَرَّكَ المُوهُون فَقَدْ يَعْني ذلِكَ أَشْياءَ عِدَّةً، وَلَكِنَّهُمْ في هذِهِ المَرَّةِ لَمْ يَتَحَرَّكوا، بَلْ حَرَّكَتْهُمُ المِياهُ.»

وَعُدْتُ لِلْمَنْزِلِ بِسُرْعةٍ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ أَثْناءَ الطَّريقِ في جُون مُوهُون، أَوْ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ، وَفي الماسةِ الَّتي خَبَّأَها. رُبَّما خَبَّأَها في قَبْرِهِ، وَرُبَّما كانَ لا يَزالُ يَبْحَثُ عَنْها، لِذَلِكَ فَإِنَّهُ كُلَّما اشْتَدَّ ظَلامُ اللَّيْلِ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ باحِثًا عَنِ الماسةِ الَّتي مِنْ أَجْلِها باعَ شَرَفَهُ!

وَكُلَّما سَيْطَرَتْ عَلَيَّ هذِهِ الأَفْكارُ أَسْرَعَتْ خُطايَ. تُرى هَلْ كانَ تَجْوالُهُ مَقْصورًا عَلى المَقابِرِ، أَمِ امْتَدَّ إلى الطُّرُقِ وَالحاراتِ؟ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الرَّجُلَ الَّذي وُجِدَ قَتيلًا!

في اليَوْمِ التَّالي -يَوْمِ الإِثْنَيْنِ- عَزَمْتُ عَلى زيارةِ المَقْبَرةِ ثانِيةً لِأَتَأَكَّدَ: هَلْ يَتَحَرَّكُ المُوهُون فِعْلًا؟ وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ قَبْلَ الغُروبِ بِقَليلٍ، أَيْ قَبْلَ أَنْ تَكْسُوَ الحُمْرةُ السَّماءَ وَتَتَراكَمَ الظِّلالُ فَتَصْعُبَ الرُّؤْيةُ خِلالَها.

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى القَبْرِ المُرْتَفِعِ وَجَدْتُ راتْسي وَإِلْزِفير هُناكَ. وَكانَ

راتْسي يَضَعُ أُذُنَهُ عَلى القَبْرِ مُنْصِتًا. تُرى ماذا كانَ يَسْمَعُ؟ وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الغَضَبِ حِينَ رَآني، فَهَمَمْتُ بِالرُّجوعِ وَلَكِنَّهُ قالَ: «جُون! ماذا تَفْعَلُ هُنا في هذا الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ؟»

قُلْتُ: «أَتَيْتُ لِأَسْتَطْلِعَ أَخْبارَ المُوهُون.»

رَدَّ راتْسي قائِلًا: «لَيْسَ لَدَيَّ ما أُخْبِرُكَ بِهِ، وَأَنا لا أَعْتَقِدُ في مِثْلِ هذِهِ الخُزَعْبِلاتِ. لَقَدْ جَرَفَتِ المِياهُ التُّرْبَةَ مِنْ تَحْتِ الحِجارةِ، وَيَجِبُ أَنْ أُعيدَ الأمورَ لِنِصابِها. هَلَّا تَكَرَّمْتَ وَمَرَرْتَ بِمَنْزِلي لِتُخْبِرَهُمْ بِأَنّي سَأَتَأَخَّرُ هذِهِ اللَّيْلَةَ، لِأَنّي مُضْطَرٌّ أَنْ أَقومَ الآنَ بِهَذا العَمَلِ.»

أَيْقَنْتُ أَنَّهُ يُريدُ إبْعادي عَنْ تِلْكَ المِنْطَقةِ، فَذَهَبْتُ لِمَنْزِلِهِ، كَما طَلَبَ مِنّي. وَعِنْدَما تَرَكْتُ بابَهُ رَأَيْتُهُ مُقْبِلًا عَبْرَ الطَّريقِ، وَضَحِكَ عِنْدَما رَآني.

# الفَصْلُ الثَّالِثُ

# تَحْتَ الأَرْضِ

كُنْتُ مَشْغوفًا بِالجُلوسِ فَوْقَ ذلِكَ القَبْرِ المِنْضَديِّ العالي حَيْثُ يُمْكِنُني أَنْ أَرَى البَحْرَ وَأُلاحِظَ السُّفُنَ. كانَ يَبْدو مِنْ كَثْرةِ آثارِ الأَقْدامِ فَوْقَ الطَّريقِ المُؤَدِّي لِلْبَحْرِ أَنَّ هذِهِ البُقْعةَ مُحَبَّبَةٌ لِغَيْري أَيْضًا. وَكُنْتُ قَدِ انْقَطَعْتُ عَنْ زِيارةِ تِلْكَ المِنْطَقَةِ عِدَّةَ أَسابيعَ بَعْدَ مُقابَلَتي لِراتْسي وَإِلْزِڤير هُناكَ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْها.

وَفي أَحَدِ الأَيَّامِ جَلَسْتُ في مَكاني المُفَضَّلِ أَتَطَلَّعُ إِلى البَحْرِ، وَأَسْتَمْتِعُ بِدِفْءِ الشَّمْسِ، وَالهُدُوءِ الَّذي شَمَلَ الكَوْنَ وَلَمْ يَتَخَلَّلْهُ سِوَى صَوْتِ جُورْج العَجوزِ يَشْدو أَثْناءَ عَمَلِهِ عَلى سَفْحِ التَّلِّ.

وَبِرَغْمِ شِدَّةِ الرِّياح كانَ الجَوُّ صَحْوًا مُنْذُ هُطولِ الأَمْطارِ الغَزيرَةِ الَّتي حَدَّثْتُكُمْ عَنْها، مِمَّا ساعَدَ عَلى أَنْ تَجِفَّ الأَرْضُ، وَأَنْ تَظْهَرَ تَشَقُّقاتٌ كَثيرةٌ، بَدا المَكانُ مَعها وَكَأَنَّهُ قِدْرٌ فَخَّارِيَّةٌ رَديئةُ الصُّنْعِ. كَذَلِكَ وَقَعَتِ انْخِسافاتٌ في الأَرْضِ في بَعْضِ الأَماكِنِ تَخَلَّفَتْ عَنْها حُفَرٌ وتَجاوِيفُ.

عِنْدَما بَلَغَتِ السَّاعةُ الرَّابعةَ فَكَّرْتُ في العَوْدةِ إِلى البَيْتِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا صادِرًا مِنْ تَحْتي -مِنَ القَبْرِ الَّذي كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَهُ- وَرَأَيْتُ

الأتْربَةَ تَنْهارُ مِنْ تَحْتِ الحِجارةِ تارِكَةً فَجْوةً كَبيرةً تَتَّسِعُ لِدُخُولِ شَخص زاحِفًا عَلى قَدَمَيْهِ وَيَدَيْهِ.

وَكَأَيِّ غُلام في مِثْلِ سِنِّي تَغَلَّبَ عَلَيْهِ الفُضولُ وَحُبُّ الاِسْتِطْلاعِ وَالكَشْفِ، قَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ المَقْبَرةِ، وَمَدَدْتُ قَدَمَيَّ داخِلَ الحُفْرةِ، فَإذا بي أَسْقُطُ فَوْقَ تُرْبةٍ هَشَّةٍ، وَوَجَدْتُني أَقِفُ مُنْتَصِبًا تَحْتَ القَبْرِ.

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هُناكَ حُجْرةً تَحْتَ القَبْرِ انْهارَ سَقْفُها فَأَحْدَثَ الفَجْوةَ الَّتي رَأَيْتُها. وَلَكِنْ سَرْعانَ ما أَدْرَكْتُ خَطَئي، فَقَدْ رَأَيْتُ أَمامي سِرْدابًا طَويلًا قَليلَ الانْحِدارِ - وَطَرِبْتُ لِأَنِّي شَعَرْتُ أَنَّني قَدْ وَجَدْتُ مَخْبَأَ الماسةِ. وَرُحْتُ أَحْلُمُ وَأَتَخَيَّلُ مَدَى سَعادَتي وَثَرائي في المُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ أَفوزَ بِالماسةِ. وَأَدْهَشَني ما وَجَدْتُ عَلَيْهِ حالَ السِّرْداب مِنْ نَظافةٍ وَحُسْنِ تَهْوِيَةٍ، وَآثارُ الأَقْدامِ الكَثيرةُ الَّتي انْطَبَعَتْ على تُرْبةِ السِّرْدابِ الطَّرِيَّةِ.

مَشَيتُ في السِّرْدابِ مادًّا ذِراعَيَّ أَمامي حَتَّى لا أَصْطَدِمَ في سَيْري بِشَيْءٍ. وَأَخَذَ الضَّوْءُ يَضْعُفُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّما تَقَدَّمْتُ، حَتَّى لَمْ أَعُدْ أَرَى غَيْرَ قَبَسٍ خافِتٍ مِنَ النُّورِ يَنْبَعِثُ خَلْفي مِنَ الحُفْرةِ الَّتي دَخَلْتُ مِنْها. أَمَّا أَمامي فَكانَ الظَّلامُ دامِسًا، مِمَّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِالخَوْفِ؛ لِذا خَرَجْتُ بِسُرْعةٍ إلى الخَلاءِ.

ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ ذلِكَ إلى مَنْزِلِ خالَتي جَرْيًا، فَقَدْ كانَ وَقْتُ العَشاءِ قَدْ حانَ. وَعَزَمْتُ في قَرارةِ نَفْسي أَنْ أَعودَ لِزِيارةِ ذلِكَ السِّرْدابِ وَمَعي شَمْعةٌ تُنيرُ لي الطَّريقَ.

# الفَصْلُ الرَّابِعُ
# مَخْبَأُ المُهَرِّبينَ

غَضِبَتْ خالَتي لِتَأَخُّري، وَلكِنَّها لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمةٍ أَثْناءَ العَشاءِ وَلَمْ أُخْبِرْها بِشَيْءٍ عَنِ اكْتِشافي.

بَعْدَ العَشاءِ هَبَّتْ واقِفةً وَقالَتْ: «جُون! لَقَدْ تكَرَّرَتْ عَوْدَتُكَ مُتَأَخِّرًا في المَساءِ، وَهَذا لا يَجوزُ لِمَنْ هُوَ في سِنِّكَ؛ لِذا لَنْ تَخْطُوَ خارِجَ عَتَبةِ المَنْزِلِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ في المُسْتَقْبَلِ. إنَّ الفِراشَ لِأَمْثالِكَ هُوَ المَكانُ المُلائِمُ في اللَّيْلِ. وَالآنَ هَيَّا لِأَقْرَأَ لَكَ.»

جَلَسَتْ وَأَخَذَتْ تَقْرَأُ عَنْ تَصَرُّفاتِ أَطْفالٍ مِثالِيِّينَ وَعَنْ حُسْنِ الخُلُقِ وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ القِيَمِ. وَكُنْتُ في شُغْلٍ شاغِلٍ عَمَّا تَقولُ؛ كُنْتُ أُفَكِّرُ في ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ، وَفي الماسةِ وَفي السِّرْدابِ. وَقُمْتُ وَحَيَّيْتُ خالَتي ثُمَّ ذَهَبْتُ لِلْفِراشِ، وَكانَتْ تِلْكَ آخِرَ مَرَّةٍ أَنامُ فِيها عَلى ذلِكَ الفِراشِ.

اِسْتَلْقَيْتُ عَلى سَريري دُونَ أَنْ أَخْلَعَ مَلابِسي، وَبَدَأْتُ أَنْتَظِرُ. اِنْتَظَرْتُ طَويلًا، حَتَّى تَأَكَّدْتُ أَنَّ خالَتي غارِقةٌ في سُباتٍ (نَوْمٍ) عَميقٍ.

خَلَعْتُ حِذائي، وَبِهُدوءٍ وَحَذَرٍ نَزَلْتُ السُّلَّمَ. وَأَخَذْتُ شَمْعةً، ثُمَّ تَسَلَّلْتُ خارِجَ المَنْزِلِ. كانَ القَمَرُ ساطِعًا، وَكانَ أَهْلُ القَرْيةِ كُلُّهُمْ نِيامًا،

وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ ضَوْءٍ سِوَى ما كانَ يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَةٍ في الفُنْدُقِ.

سِرْتُ في الظَّلامِ وَاقْتَرَبْتُ بِحَذَرٍ مِنَ النَّافِذَةِ المُضاءَةِ مُحاوِلًا أَنْ أَرَى ما يَدورُ بالدَّاخِلِ. وَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ أَصْواتًا كَثيرةً. وتَساءَلْتُ عَمَّا يَتَحَدَّثونَ في هذا الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ.

اِنْتابَني الخَوْفُ عِنْدَما وَصَلْتُ إلى المَقْبَرةِ. كانَ الوَقْتُ وَالمَكانُ مُناسِبَيْنِ لِظُهورِ الشَّبَحِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ رُؤْيَتَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَلَكِنَّ الظِّلالَ المُحيطَةَ بِالمَكانِ ظَلَّتْ ساكِنَةً مِنْ حَوْلي، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ وَقْعِ قَدَمي عَلى الحَشائِشِ.

نَظَرْتُ إلى الفَجْوةِ وَوَقَفْتُ حائِرًا: هَلْ أَسْتَمِرُّ في بَحْثي أَمْ أَعودُ؟ وَبَيْنَما أَنا كَذَلِكَ، أَبْصَرْتُ عِنْدَ الشَّاطِئِ قارِبًا، وَعَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ ذلِكَ القارِبِ يَرْسو في الخَليجِ، وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ كَهَذا. ثُمَّ أَبْصَرْتُ نُورًا أَزْرَقَ يَنْبَعِثُ مِنَ القارِبِ، وأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَحْمِلُ المُهَرِّبينَ. وَرَأَيْتُ بَحَّارَتَهُ يُرْسِلونَ إشارةً لِشَخْصٍ ما، أَوْ لِأَشْخاصٍ عَلى الشَّاطِئِ لِيُعْلِنوا اِسْتِعْدادَهُمْ، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً حَوْلي ثُمَّ دَخَلْتُ الفَجْوةَ.

أَمْسَكْتُ الشَّمْعةَ وَرَفَعْتُها أَمامي وَسِرْتُ في السِّرْدابِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ الأَحْلامِ. كُنْتُ أَحْلُمُ بِالماسَةِ وَما سَتُدِرُّهُ عَلَيَّ مِنْ ثَراءٍ، وما سَتَجْلُبُهُ مِنْ سَعادةٍ. وَلاحَظْتُ عَلى الأَرْضِ آثارَ أَقْدامٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ في المَرَّةِ



الأولَى، فَخِفْتُ أَنْ يَكونَ أَحَدٌ غَيْري قَدْ سَبَقَني إلى مَكانِ الماسةِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْها. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ المَسافَةَ لَمْ تَتَعَدَّ العِشْرينَ مِتْرًا فَإِنَّها بَدَتْ لي وَكَأَنَّها آلافُ الأَمْتارِ. وَأَخيرًا وَصَلْتُ لِجِدارٍ حَجَرِيٍّ أُقيمَ كَحاجِزٍ بِعَرْضِ السِّرْدابِ. وَكَانَ بِهِ فُتْحةٌ تُؤَدِّي إلى قاعةٍ خَلْفَهُ أَدْرَكْتُ أَنَّها مَكانُ دَفْنِ أُسْرةِ مُوهُون.

دَخَلْتُ مِنَ الفُتْحةِ فَوَجَدْتُني في قاعةٍ فَسيحةٍ تَزيدُ قَليلًا في اتِّساعِها عَنْ حُجْرةِ الفَصْلِ في المَدْرَسةِ، وَلَكِنَّها تَقِلُّ ارْتِفاعًا عَنْها. فَقَدْ كانَ السَّقْفُ لا يَعْلو أَكْثَرَ مِنْ مِتْرَيْنِ وَنِصْفِ المِتْرِ عَنِ الأَرْضِ المُغَطَّاةِ بِالرَّمْلِ. وَفي نِهايَةِ القاعَةِ كانَ هُناكَ سُلَّمٌ، عَلى حِينَ احْتَوَتْ جَوانِبُها عَلى صَناديقَ لِلْمَوْتَى وُضِعَ كُلٌّ مِنْها في تَجْويفٍ خاصٍّ بِالجِدارِ. وَفي وَسَطِ الحُجْرةِ رَأَيْتُ عَديدًا مِنَ البَراميلِ وَالصَّناديقِ المُخْتَلِفةِ الحَجْمِ، وَكُلُّها وَلا شَكَّ تَحْتَوي عَلى بَضائِعَ مُهَرَّبةٍ.

وَهَكَذا بَدَلًا مِنِ اكْتِشافِ الكَنْزِ الَّذي كُنْتُ أَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ اكْتَشَفْتُ مَخْبَأَ البَضائِعِ المُهَرَّبةِ داخِلَ مَقْبَرةِ المُوهُون. حِينَئِذٍ أَدْرَكْتُ أَنَّ ما سَمِعْناهُ عَصْرَ يَوْمِ الأَحَدِ السَّالِفِ لَمْ يَكُنْ صَوْتَ تَحَرُّكِ صَناديقِ المَوْتَى تَحْتَ تَأْثيرِ المِياهِ فَقَطْ، بَلْ كانَ تَحَرُّكَ صَناديقِ البِضاعةِ وَالبَراميلِ كَذَلِكَ. وَكانَ حُضورُ راتْسي في اليَوْمِ التَّالي -لا شَكَّ- لِلاطْمِئْنانِ عَلى أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكْتَشِفِ المَخْبَأَ. وَكانَتِ العَلامةُ الَّتي تَرَكَتْها المِياهُ عَلى الجِدارِ تَصِلُ تَقْريبًا إلى

اِرْتِفاعِ نِصْفِ مِتْرٍ مِنَ السَّقْفِ.

عاوَدَتْني أَحْلامي عَنِ الماسةِ وَكَيْفَ أَصِلُ إِلَيْها، فَتَفَحَّصْتُ صَناديقَ المَوْتَى بِدِقَّةٍ، ولَمْ يَكُنْ على أَكْثَرِها أَسْماءٌ. وَبَدَأْتُ أَيْأَسُ مِنَ العُثورِ عَلى ضالَّتي، وَهَمَمْتُ بِالعَوْدَةِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ مُقْبِلَةٍ وَصَوْتَ أَشْخاصٍ يَتَحَدَّثونَ عَنْ بُعْدٍ، فَتَمَلَّكَني الهَلَعُ وَوَقَفْتُ مَكاني ثابِتًا بِضْعَ دَقائِقَ مَضَتْ كَأَنَّها ساعاتٌ. وَحَتَّى يَوْمِنا هذا، وَبالرَّغْمِ مِنْ مُرورِ أَعْوامٍ عَديدةٍ عَلى تِلْكَ اللَّحْظَةِ، ما زِلْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ وَقَفْتُ في مَكاني وَكَأَنَّ الشَّلَلَ قَدْ أَصابَني؛ فَكُنْتُ كَثَعْلَبٍ قُبِضَ عَلَيْهِ في جُحْرِه. وَلَطالَما سَمِعْتُ عَمَّا كانَ يَفْعَلُهُ المُهَرِّبونَ بِمَنْ يَكْتَشِفُ أَسْرارَهُمْ أَوْ يَطَّلِعُ على أَحْوالِهِمْ، وَتَذَكَّرْتُ ذلِكَ المِسْكينَ الَّذي وُجِدَتْ جُثَّتُهُ في المَقْبَرَةِ، وَقِيلَ إِنَّهُ اِلْتَقَى بِذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ في اللَّيْلِ.

أَفَقْتُ مِنْ جُمودي عِنْدَما سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقْفِزُ إلى السِّرْداب، ونَظَرْتُ حَوْلي أَبْحَثُ عَنْ مَفَرٍّ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى. ثُمَّ سَمِعْتُ الرَّجُلَ الَّذي في أَسْفَلِ الفَجْوةِ يَتَحَدَّثُ إلى آخَرينَ في الفِناءِ. وَفَجْأَةً لَمَحْتُ صُنْدوقَ مَيِّتٍ مُنْعَزِلًا عَنْ بَقيَّةِ الصَّناديقِ في أَعْلَى الجِدارِ، وَكانَ يَرْتَفِعُ حَوالَي مِتْرَيْنِ عَنِ الأَرْضِ. وَسَرْعانَ ما تَسَلَّقْتُ إلى الصُّنْدوقِ وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِدارِ، راقِدًا عَلَى جَنْبي أُراقِبُ ضَوْءَ الشُّموعِ الَّتي كانَ يَحْمِلُها الرِّجالُ، وَالَّذي أَخَذَ يَقْتَرِبُ مِنِّي شَيْئًا فَشَيْئًا.

سَمِعْتُ راتْسي يَقولُ: «سَأَسُدُّ الفَجْوةَ بِحَيْثُ أَمْحُو أَثَرَها تَمامًا.»

فَقالَ آخَرُ: «حَذارِ أَنْ يَراكَ أَحَدٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذلِكَ.»

وَكَثُرَ الرِّجالُ في الغُرْفةِ وَقالَ أَحَدُهُمْ: «كُنْتُ في دُورْشِسْتَر مُنْذُ ثَلاثةِ أَيّامٍ، وَسَمِعْتُهُمْ يَقولونَ إِنَّهُمْ سَيَقومونَ بِإِعْدامِ المُهَرِّبينَ الَّذين قُبِضَ عَلَيْهِمْ في الصَّيْفِ. وَكانَ ماسْكيو أَكْثَرَ النّاسِ حَماسةً وتَمَسُّكًا بِضَرورةِ الإِعْدامِ.»

قالَ أَحَدُهُمْ: «آهٍ! ماسْكيو! كَمْ أَوَدُّ أَنْ أُلاقيَهُ وَأَقْتُلَهُ!»

وَقالَ آخَرُ: «بِوُدّي أَنْ أَلْقاهُ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ لِأُلَقِّنَهُ دَرْسًا لَنْ يَنْساهُ.»

اِرْتَفَعَ صَوْتُ إلْزِفير قائِلًا: «كَلَّا! كَلَّا! ماسْكيو هذا مِن نَصيبِي أَنا. هَلْ نَسِيتُم أَنَّهُ قَتَلَ ابْني؟ دَعوهُ لي وَحْدي.»

كادَ يُغْمَى عَلَيَّ نَتيجةَ فَسادِ الهَواءِ مِنْ كَثْرةِ المَوْجودينَ، وَكَثْرةِ الشُّموعِ المُضاءَةِ، بِالإِضافةِ إِلى الرَّوائِحِ الكَريهةِ.

شَعَرْتُ بِأَلَمٍ حادٍّ في جَنْبي بِسَبَبِ رُقاديَ الطَّويلِ عَلى جانِبٍ واحِدٍ. وَبَيْنَما أَنا أَنْقَلِبُ إِلى الجانِبِ الآخَرِ، سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَذْكُرُ اسْمي قائِلًا:

«ذلِكَ الغُلامُ ابْنُ تِرِنْشارد كَثيرًا ما يَجْلِسُ عَلى شاهِدِ القَبْرِ العالي يَتَطَلَّعُ إِلى البَحْرِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنَ القارِبِ جالِسًا هُناكَ وَقْتَ الغُروب. وَرَغْمَ أَنّي

لَمْ أُمَيِّزْ مَلامِحَ وَجْهِهِ لِبُعْدِ المَسافَةِ فَإِنَّني عَرَفْتُهُ، وَإِنِّي لأَخْشَى أَنْ يَكونَ جاسوسًا عَلَيْنا يُدْلي بِمَعْلوماتِهِ لِماسْكيو.»

رَدَّ عَلَيْهِ شَخْصٌ آخَرُ مِنْ قَرْيَةٍ قَريبَةٍ قائِلًا: «أَنْتَ عَلى حَقٍّ يا هذا. كَثيرًا ما رَأَيْتُ ذلِكَ الغُلامَ يَحومُ حَوْلَ مَنْزِلِ ماسْكيو -بَيْنَما كُنْتُ أُراقِبُ المَنْزِلَ- وَكانَ يَسيرُ وَهُوَ شارِدُ الذِّهْنِ كَمُحِبٍّ وَلْهانَ.»

كانَتْ تِلْكَ هِيَ الحَقيقةَ، فَكَثيرًا ما كُنْتُ أَسيرُ في لَيالي الصَّيْفِ في الطَّريقِ الصَّاعِدِ إلى التَّلِّ خَلْفَ مَنْزِلِ ماسْكيو، وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ: أَوَّلُهُما أَنَّ الطَّريقَ نَفْسَهُ كانَ بَديعًا، وَثانِيهِما أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ فُرْصَةٌ أَنْ أَحْظَى بِرُؤْيَةِ جِريس ابْنَةِ ماسْكيو. وَكُنْتُ أَجْلِسُ عَنْ بُعْدٍ وَأُراقِبُها وَهِيَ تَجوبُ أَنْحاءَ الحَديقةِ. وَأَحْيانًا كُنْتُ أَمُرُّ بِالقُرْبِ مِنْ نافِذَتِها وَأَرْفَعُ يَدي لَها بالتَّحِيَّةِ. وَذاتَ يَوْمٍ عَرَفْتُ أَنَّها مَريضةٌ، فَتَرَكْتُ المَدْرَسَةَ وَجَلَسْتُ طُولَ اليَوْمِ فَوْقَ الحاجِزِ أَنْظُرُ إلى المَنْزِلِ الَّذي رَقَدَتْ فِيهِ طَريحةَ الفِراشِ. نَعَمْ كُنْتُ أَتَرَدَّدُ كَثيرًا عَلى ذلِكَ المَكانِ، ولَكِنْ لَيْسَ لِأَنِّي كُنْتُ جاسوسًا، وَإِنَّما مِنْ أَجْلِ جِريس.

دَفَعَ راتْسي عَنِّي التُّهْمَةَ قائِلًا: «لا، لا! ابْنُ تِرِنْشارد غُلامٌ طَيِّبٌ، وَكَثيرًا ما حَدَّثَني عَنْ شَغَفِهِ بِالجُلوسِ في هذِهِ البُقْعةِ لِأَنَّهُ يَرَى مِنْها البَحْرَ كُلَّهُ.»

وَأَدْهَشَني إلْزِفير بِقَوْلِهِ: «جُون تِرِنْشارد غُلامٌ شُجاعٌ نَبيلٌ. كَمْ أَتَمَنَّى لَوْ

كانَ ابْني! إنَّهُ في نَفْسِ سِنِّ داڤِيد، وَأَنا واثِقٌ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ بَحّارًا ماهِرًا عِنْدَما يَشِبُّ.»

وَأَشاعَتْ كَلِماتُهُ هذِهِ عَلى بَساطَتِها الطَّرَبَ وَالسُّرورَ في نَفْسي، فَقَدْ كانَتْ بِها رَنَّةُ صِدْقٍ وَإخْلاصٍ. وَكانَ لإلْزِڤير عِنْدي مَكانةُ حُبٍّ وَتَقْديرٍ، وَكَمْ حَزِنْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ نَبَأَ مَقْتَلِ ابْنِهِ.

شَعَرْتُ بِرَغْبةٍ جامِحةٍ في أَنْ أَقْفِزَ وَأُناديَ: «هاأَنَذا!» وَلكِنِّي تَمالَكْتُ نَفْسي، وَبَقِيتُ حَيْثُ أَنا دُونَ حَراكٍ.

كانَ الرِّجالُ قَدْ فَرَغوا مِنْ إحْضارِ الصَّناديقِ، وَجَلَسوا يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ الحَديثِ، ثُمَّ بَدَأَ أَحَدُهُمْ يُغَنِّي فَقالَ إلْزِڤير: «صَهٍ أَيُّها الغَبِيُّ! إنَّ صَوْتَكَ كافٍ لأَنْ يُوقِظَ القَرْيَةَ بِأَسْرِها.»

فَقالَ راتْسي: «لَوِ اسْتَيْقَظوا فَسَيَظُنُّونَ أَنَّ ذا اللِّحْيةِ السَّوْداءِ يَسْتَنْجِدُ بِالمُوهُون لِيُساعِدوهُ في البَحْثِ عَنِ الماسةِ.»

وَعَمَّ الصَّمْتُ بُرْهَةً، وَكانَ واضِحًا أَنَّ إلْزِڤير هُوَ رَئيسُ تِلْكَ الجَماعَةِ. ثُمَّ قالَ أَحَدُهُمْ: «إنَّ إلْزِڤير عَلى حَقٍّ، فَلَقَدْ تَأَخَّرَ الوَقْتُ، فَلْنَرْجِعِ الآنَ إلى القارِبِ.»

# الفَصْلُ الخامِسُ

# سَجينُ المَقْبَرةِ

ذَهَبَ الرِّجالُ، وَبَدَأَتْ أَضْواءُ الشُّموعِ الَّتي يَحْمِلونَها تَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَكانَ وَقْعُ أَقْدامِهِمْ يَتَلاشَى مَعَ ابْتِعادِهِمْ. وَصِرْتُ وَحْدِي، وَحْدِي مَعَ المَوْتَى في صَناديقِهِمْ يُحيطونَ بي مِنْ كُلِّ جانِبٍ! وَظَلَلْتُ أَسْمَعُ حَديثَ الرِّجالِ مُدَّةً طَويلةً، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ ما زالَ في آخِرِ السِّرْدابِ، فَقَدْ كانُوا يَتَشاوَرونَ في كَيْفِيَّةِ تَرْميمِ الفَجْوةِ بِحَيْثُ لا يَكْتَشِفُها أَحَدٌ. وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى تَرْكِ مَكاني ما دُمْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا.

وَلَمّا سَكَتَتِ الأَصْواتُ نَهَضْتُ، وَقَرَّرْتُ العَوْدَةَ لِلْمَنْزِلِ دُونَ اسْتِكْمالِ بَحْثي، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ وَاشْتَقْتُ لِفِراشي. وَلَكِنِّي اكْتَشَفْتُ أَنَّ دُخولَ مَخْبَئي أَسْهَلُ مِنَ الخُروجِ مِنْهُ، فَقَدْ كانَ الصُّنْدوقُ الَّذي احْتَمَيْتُ وَراءَهُ بالِيًا هَشًّا، فَلَمْ أَجْرُؤْ على الصُّعودِ فَوْقَهُ. وَلا أَدْري ما الَّذي حَدَثَ بِالضَّبْطِ، فَقَدْ وَجَدْتُ نَفْسي وَقَدْ سَقَطْتُ والشَّمْعَةَ على الأَرْضِ، فَمَدَدْتُ يَدي لِأَلْتَقِطَها، وَأَمْسَكْتُ بِالصُّنْدوقِ لِأَسْتَنِدَ عَلَيْهِ، فَإذا بِيَدي تَخْتَرِقُهُ وَإذا بي أَقَعُ ثانِيَةً عَلى الأَرْضِ وَسْطَ كَوْمَةٍ مِنَ التُّرابِ وَقِطَعِ الخَشَبِ المُحَطَّمَةِ، وَفي نَفْسِ الوَقْتِ أَطْبَقَتْ يَدي عَلى شَيْءٍ صُلْبٍ صَغيرٍ داخِلَ الصُّنْدوقِ دُونَ أَنْ أَدْرِيَ حَقيقَتَهُ.

اِلْتَقَطْتُ الشَّمْعَةَ وَعَلى ضَوْئِها تَفَحَّصْتُ ما بِيَدي، فَوَجَدْتُهُ عُلْبَةً صَغيرةً فِضِّيَّةً، وَغَمَرَني الفَرَحُ إذِ اعْتَقَدْتُ أَنَّني وَجَدْتُ الماسةَ، وَخاصَّةً أَنَّ الصُّنْدوقَ الَّذي رَقَدْتُ بِجِوارِهِ كانَ يَضُمُّ رُفاتَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ، وَكانَتِ العُلْبَةُ مُدَلَّاةً مِنْ عُنُقِهِ!

فَتَحْتُ العُلْبَةَ بَعْدَ جَهْدٍ، وَكَمْ كانَتْ صَدْمَتي عِنْدَما لَمْ أَجِدْ بِداخِلِها غَيْرَ وَرَقَةٍ صَغيرَةٍ مَطْوِيَّةٍ. وَلَكِنْ رُبَّما كانَتْ تِلْكَ الوَرَقَةُ تَكْشِفُ مَكانَ الماسةِ. وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّمْعةِ رَأَيْتُ عَلَيْها بِضْعةَ أَسْطُرٍ جاءَ فِيها:

قَدْ يَحْيا الإِنْسانُ ثَمانينَ عامًا؛
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ؛
قُمْ وانْهَلْ مِنْ بِئْرِ المُتْعةِ والهَناءِ
فَالمَوْتُ يَأْتي مِنَ الشَّمالِ أَوِ
الجَنوب، في الظَّهيرةِ أَوِ المَساءِ

وَكانَتْ مُذَيَّلَةً بِإمْضاءِ جُون مُوهُون. وَكانَتْ بَعْضُ الكَلِماتِ تَبْدَأُ بِأَحْرُفٍ كَبيرةٍ وَالباقي كُلُّه مَكْتوبٌ بِخَطٍّ صَغيرٍ.

وَهَكَذا انْتَهَتْ أَحْلامي. وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَعودَ لِلْمَنْزِلِ رَغْمَ فَشَلي في العُثور عَلى الماسةِ. وَعَلَّقْتُ العُلْبَةَ حَوْلَ عُنُقي وَهَمَمْتُ بِالعَوْدةِ. وَما إنْ وَصَلْتُ إلى آخِر السِّرْدابِ حَتَّى وَجَدْتُ راتْسي قَدْ سَدَّ الفَجْوَةَ وَغَطَّاها بِالحِجارَةِ. وانْطَفَأَتِ الشَّمْعةُ. وَأَصْبَحْتُ في حالةٍ يُرْثَى لَها مِنَ الخَوْفِ وَالانْزِعاجِ. وَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُ بُزوغَ الفَجْرِ، آمِلًا أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ إزالَةِ الأَتْرِبةِ



وَالأحْجارِ عَلى ضَوْءِ ما يَنْفُذُ إِلَيَّ مِنْ أَشِعَّةِ النَّهارِ.

كُنْتُ مُتْعَبًا فَغَلَبَني النُّعاسُ وَنِمْتُ، ولَمْ أَدْرِ كَمْ مِنَ الوَقْتِ نِمْتُ؟ وَلَكِنِّي عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانَتِ الدُّنْيا لا تَزالُ مُظْلِمةً، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالانْتِعاشِ كَما يَجِبُ أَنْ يَكونَ بَعْدَ نَوْمٍ طَويلٍ. وَرَفَعْتُ بَصَري إلى أَعْلَى فَرَأَيْتُ بَصيصًا مِنَ النُّورِ يَتَخَلَّلُ الحِجارةَ فَوْقي، فَأَدْرَكْتُ أَنِّي نِمْتُ يَوْمًا بِأَكْمَلِهِ، ذلِكَ أَنَّ الضَّوْءَ النَّافِذَ إِلَيَّ لَمْ يَكُنْ سِوَى ضَوْءِ الشَّمْسِ الغارِبَةِ، الأَمْرُ الَّذي جَعَلَني أَشْعُرُ بِالفَزَعِ لِأَنَّ ذلِكَ كانَ يَعْني أَنْ أَمْضِيَ لَيْلَةً أُخْرَى في المَكانِ نَفْسِهِ.

بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالجُوعِ، فَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَناوَلْتُ في الأَرْبَعِ وَالعِشْرينَ ساعةً الماضِيَةِ أَيَّ طَعامٍ. كَذلِكَ شَعَرْتُ بِالعَطَشِ وَحاوَلْتُ أَنْ أُزيحَ الحِجارةَ بِأَصابِعي فَوَجَدْتُها قَدْ جَفَّتْ وَثَبَتَتْ في مَكانِها. وَبَعْدَ حَوالَي ساعةٍ مِنَ المُحاوَلاتِ المُضْنِيَةِ اِرْتَمَيْتُ عَلى الأَرْضِ وَقَدْ تَلاشَى آخِرُ بَصيصٍ مِنَ الضَّوْءِ وَعَمَّ ظَلامٌ حالِكٌ.

غَطَّيْتُ عَيْنَيَّ بِذِراعيَّ حَتَّى لا أَرَى ما حَوْلي، وَلَبِثْتُ بُرْهةً طَويلةً عَلى تِلْكَ الحالِ، ثُمَّ هَبَبْتُ واقِفًا أَصْرُخُ بِأَعْلى صَوْتي طالِبًا النَّجْدةَ مُناديًا راتْسي وَإِلْزِفير وَجلِيني وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

حاوَلْتُ ثانِيَةً أَنْ أُزيلَ الحِجارَةَ، وَلَكِنْ جانَبَني التَّوْفيقُ، فَسَلَّمْتُ أَمْري للهِ، وَنِمْتُ. وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ أَدْرَكْتُ أَنَّ شَمْسَ اليَوْمِ التَّالي قَدْ أَشْرَقَتْ. وَحاوَلْتُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثةِ أَنْ أَفْتَحَ الفَجْوةَ لِأَخْرُجَ وَلَكِنِّي فَشِلْتُ، وَاسْوَدَّتِ الدُّنيا في عَيْنَيَّ، وَاعْتَراني دُوارٌ مُخيفٌ وَوَقَعْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ.

# الفَصْلُ السَّادِسُ
# في فُنْدُقِ الوايْنَط

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ نَظيفٍ في غُرْفَةٍ تَغْمُرُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ. حَمْدًا لَكَ يا إِلَهي عَلى نِعْمَتِكَ! ما أَحْلَى ضَوْءَ الشَّمْسِ!

ظَنَنْتُ أَنِّي في فِراشيَ المُعْتادِ في مَنْزِلِ خالَتي، وَأَنَّ كُلَّ ما مَضَى لَمْ يَكُنْ سِوَى حُلْمٍ أَوْ كابوسٍ. وَحاوَلْتُ النُّهوضَ فَلَمْ أَقْدِرْ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالمَرَضِ وَالضَّعْفِ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِوجودِ شَيْءٍ ما حَوْلَ عُنُقي. وَعِنْدَما مَدَدْتُ يَدي وَجَدْتُ العُلْبَةَ، وَحِينَئِذٍ أَيْقَنْتُ أَنَّ كُلَّ ما مَرَّ بي كانَ حَقيقَةً لا حُلْمًا.

فُتِحَ البابُ وَدَخَلَ إِلْزِفير بلُوك، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدي وَقُلْتُ مُتَوَسِّلًا: «أَرْجوكَ أَنْقِذْني، أَرْجوكَ.»

فَرَبَّتَ عَلى رَأْسي بِعَطْفٍ وَقالَ: «اهْدَأْ يا فَتى وَلا تَخَفْ، فَلَنْ يُؤْذيَكَ أَحَدٌ. خُذِ اشْرَبْ.»

ناوَلَني كُوبًا مِنَ اللَّبَنِ السَّاخِنِ. وَأَخْبَرَني وَأَنا أَشْرَبُهُ بِأَنَّني مَوْجودٌ في الفُنْدُقِ. وَلَمْ يَزِدْ عَلى ذلِكَ، بَلْ أَمَرَني أَنْ أَنامَ ثانِيَةً. وَوَعَدَ أَنْ يُوافيَني بِباقي الأَخْبارِ فِيما بَعْدُ.

مَضَتْ عَشَرَةُ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ أَتَماثَلَ لِلشِّفاءِ وَأَسْتَرِدَّ عافِيَتي. وَكانَ



إلْزِفِير طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ يُعامِلُني بِكُلِّ مَحَبَّةٍ وَحَنانٍ، كَما لَوْ كانَ أُمًّا تَرْعَى طِفْلَها.

كانَ السَّيِّدُ جلِيني قَدْ لاحَظَ، في أَثْناءِ انْحِباسي في المَقْبَرَةِ، تَغَيُّبي عَنِ المَدْرَسةِ، فَذَهَبَ يَسْأَلُ عَنِّي خالَتي؛ فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنِّي قَدْ هَرَبْتُ وَأَنَّها لا تَعْلَمُ لي مَقَرًّا. فَذَهَبَ إلى راتْسي وَكانَ هُوَ الآخَرُ يَجْهَلُ مَكاني. وَرَجَّحَ الجَميعُ أَنِّي قَدْ هَرَبْتُ فَوْقَ ظَهْرِ سَفينَةٍ عابِرَةٍ.

وَفي نَفْس ذلِكَ اليَوْمِ الَّذي سَأَلَ فيهِ جلِيني عَنِّي قالَ أَحَدُهُمْ في الفُنْدُقِ إنَّهُ سَمِعَ أَصْواتًا عالِيَةً صادِرَةً مِنَ المَقابِرِ وَإنَّهُ ظَنَّها صُراخَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ.

عِنْدَما سَمِعَ إلْزِفير ذلِكَ أَيْقَنَ أَنَّ شَخْصًا ما قَدْ أُغْلِقَ عَلَيْهِ السِّرْدابُ وَأَصْبَحَ سَجينًا، فَذَهَبَ مَعَ راتْسي يَسْتَطْلِعُ الأمْرَ. وَهُناكَ وَجَداني في حالَةٍ تَقْرُبُ مِنَ المَوْتِ فَأَحْضَراني لِلفُنْدُقِ.

حَضَرَ راتْسي لِزِيارَتي عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَقالَ لي مَرَّةً: «اِسْمَعْ يا جُون! لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ غَيْري وَغَيْرُ إلْزِفير يَعْلَمُ أَنَّكَ اكْتَشَفْتَ سِرَّ المَخْبَإ. فَإيَّاكَ، إيَّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا.» أَمَّا إلْزِفير فكانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنِّي لَنْ أَبوحَ بِالسِّرِّ لِذا لَمْ يَقُلْ لي شَيْئًا.

بَعْدَ أَنْ تَماثَلْتُ لِلشِّفاءِ ذَهَبْتُ إلى مَنْزِلِ خالَتي، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ حَضَرَتْ لِزِيارَتي في الفُنْدُقِ قَطُّ أَوْ حَتَّى اسْتَفْسَرَتْ عَنِّي أَثْناءَ مَرَضي. فَقابَلَتْني بِجَفاءٍ وَغِلْظَةٍ وَقالَتْ: «عُدْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْت. اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي، وَعُدْ إلى الفُنْدُقِ حَيْثُ تُحِبُّ أَنْ تَعيشَ.» وَفاضَتْ عَيْنايَ بالدُّموعِ، وَأَدَرْتُ وَجْهي وَتَرَكْتُ البَيْتَ الَّذي عَرَفْتُهُ، وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُ مُنْذُ نَشْأَتي.

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى الفُنْدُقِ وَأَخبَرْتُ إلْزِفير بِأَنَّ خالَتي طَرَدَتْني ظَهَرَ عَلَيْهِ الفَرَحُ وَقالَ: «الآنَ يُمْكِنُ أَنْ تُقيمَ مَعَنا وَتَصيرَ ابْنًا لي بَدَلًا مِنِ ابْني داڤيد.»

وَهَكَذا أَقَمْتُ في الفُنْدُقِ، وَأَرْسَلَتْ لي خالَتي صُنْدوقَ مَلابِسي.

عِشْتُ مَعَ إلْزِفِير. وَكُنْتُ أَذْهَبُ لِلْمَدْرَسةِ في الصَّباحِ، وَأَمْضي بَعْدَ الظُّهْرِ أُعاوِنُهُ في الفُنْدُقِ أَوْ في صَيْدِ السَّمَكِ.

كَثيرًا ما طَلَبْتُ مِنْ إلْزِفِير أَنْ يَصْحَبَني مَعَهُ في عَمَلِيَّاتِ التَّهريبِ الَّتي يَقومُ بِها، فَكانَ يَرْفُضُ لِصِغَرِ سِنِّي. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ بَدَأَ يَصْحَبُني مَعَهُ، وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَمْضَيْتُها في القارِبِ، وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى دُخولِ السِّرْدابِ مَرَّةً ثانِيةً.

لازَمَتْني العُلْبَةُ الصَّغيرةُ -عُلْبَةُ جُون مُوهُون- مُعَلَّقَةً حَوْلَ عُنُقي، وَقَدْ أَصْبَحَتْ لامِعَةً بَرَّاقةً بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بِتَنْظيفِها. وَكَثيرًا ما حاوَلْتُ مَعَ إلْزِفِير أَنْ نَحُلَّ سُطورها وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

# الفَصْلُ السَّابِعُ
# الدَّبُّوسُ يَسْقُطُ

في أَوائِلِ الرَّبيعِ حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ دُورشِسْتَر، وَعَلَّقَ على بابِ الفُنْدُقِ بَيانًا جاءَ فِيه أَنَّ مَنْدوبَ المَلِك سَوْفَ يَحْضُرُ لِزيارةِ قَرْيةِ مُونْفِليت خِلالَ أُسْبوعٍ.

وَمَنْدوبُ المَلِكِ هذا كانَ رَجُلًا ذا مَكانةٍ يَحْضُرُ مَرَّةً كُلَّ خَمْسةِ أَعْوامٍ لِيَتَفَقَّدَ أَراضِيَ المَلِكِ وَمُمْتَلَكاتِهِ. وِلَمْ يَكُنْ بِقَرْيَتِنا شَيْءٌ مِنْ هذِهِ المُمْتَلَكاتِ سِوَى فُنْدُقِ «وايْنَط» أَمَّا باقي الأَرْضِ فَكانَتْ لِلْمُوهُون.

وَكانَ يَحْضُرُ كَذَلِكَ لِيُجَدِّدَ عَقْدَ إيجارِ الفُنْدُقِ، وَيُقَرِّرُ مَنْ لَهُ الحَقُّ في اسْتِغْلالِهِ لِمُدَّةِ السَّنَواتِ الخَمْسِ التَّالِيةِ. وَكانَ إلْزِفِير يَفوزُ دائِمًا بِتَجْديدِ عَقْدِ إيجارِ الفُنْدُقِ.

وَعِنْدَما رَأَيْتُ المَنْدوبَ مُقْبِلًا في الطَّريقِ مُمْتَطِيًا جَوادَهُ أَسْرَعْتُ وَأَخْبَرْتُ إلْزِفِير بِوُصولِهِ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ لِمَنْزِلِ خالَتي وَأُحْضِرَ شَمْعةً مِنْ عِنْدِها. وَلَمْ أَكُنْ قَدْ وَطِئْتُ عَتَبَةَ بابِها مُنْذُ أَنْ طَرَدَتْني، وَأَعْطَتْني الشَّمْعةَ وَتَمَنَّتْ أَنْ تُضِيءَ الشَّمْعةُ قَلْبي وَبَصيرَتي.

عِنْدَما عُدْتُ إلى الفُنْدُقِ وَجَدْتُ جَوادَ المَنْدوبِ واقِفًا على بابِهِ وَحَوْلَهُ لَفيفٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيةِ. وَكانَ المَنْدوبُ في الدَّاخِلِ جالِسًا يَتَناوَلُ وَجْبةَ طَعامٍ شَهِيَّةً أَعَدَّها لَهُ إلْزِفِير.

أَخَذَ إلْزِفِير الشَّمْعَةَ مِنِّي وَثَبَّتَها في وَسَطِ المِنْضَدةِ، ثُمَّ قامَ مَنْدوبُ المَلِكِ

وَغَرَزَ بِها دَبُّوسًا على بُعْدِ سَنْتيمِتْرَيْنِ مِنْ أَعْلاها. وَكانَ العُرْفُ يَقْضي بِأَنَّهُ ما بَقِيَ الدَّبُّوسُ مَغْروسًا في الشَّمْعَةِ المُضاءَةِ يَظَلّ عَطاءُ المُزايدَةِ مَفْتوحًا وَيَكونُ لِأَيِّ فَرْدٍ الحَقُّ في دُخولِ المُزايَدةِ. وَعِنْدَما تَحْتَرِقُ الشَّمْعَةُ وَيَسْقُطُ



الدَّبُّوسُ يَسْقُطُ ذٰلِكَ الحَقُّ وَيَرْسُو المَزادُ عَلى آخِرِ شَخْصٍ تَقَدَّمَ بِعَرْضٍ وَيُصْبِحُ الفُنْدُقُ لَهُ مُدَّةَ السَّنَواتِ الخَمْسِ التَّالِيَةِ.

بَعْدَ أَنْ فَرَغَ المَنْدوبُ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ، أَضاءَ الشَّمْعَةَ، وَبَدَأَتِ المُساوَمةُ. وَتَقَدَّمَ إِلْزِفِير بِمَبْلَغِ اثْنَي عَشَرَ جُنَيْهًا إيجارًا سَنَوِيًّا لِلْفُنْدُقِ كَالمُعْتادِ.

وَجَلَسَ الجَميعُ حَوْلَ المِنْضَدةِ يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ الحَديثِ وَيُراقِبونَ لَهَبَ الشَّمْعةِ وَهُوَ يَقْتَرِبُ بِبُطْءٍ مِنْ مَكانِ الدَّبُّوسِ. وَفَجْأَةً دَفَعَ ماسْكيو البابَ وَدَخَلَ، وَتَقَدَّمَ إِلى المِنْضَدَةِ، فَنَهَضَ إِلْزِفِير وَقالَ: «يا سَيِّد ماسْكيو، إِنَّكَ لَسْتَ صَديقًا لي، وَسَيُسْعِدُني أَنْ تَعودَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ. فَأَنا أَمْنَعُكَ مِنَ الجُلوسِ عَلى هٰذِهِ المِنْضَدَةِ بِالذَّاتِ.» وَأَدْرَكْتُ مَقْصِدَ إِلْزِفِير مَنْ ذٰلِكَ، فَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ المِنْضَدَةُ هِيَ نَفْسَها الَّتي رَأَيْتُ داڤيد مُمَدَّدًا عَلَيْها.

اِلْتَفَتَ ماسْكيو إِلى المَنْدوبِ وَسَأَلَهُ: «أَخْبِرْني ماذا تَمَّ حَتَّى الآنَ. فَإِنَّني أَرَى أَنَّهُ ما زالَ أَمامَنا نَحْوُ دَقيقةٍ. وَأُريدُ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ هٰذِهِ المُهِمَّةِ لأُنْجِزَ مَهامَّ أُخْرى في بِرِدْبُورت.» فَأَخْبَرَهُ المَنْدوبُ بِالعَرْضِ الَّذي قَدَّمَهُ إِلْزِفِير، ثُمَّ أَمَرَ بِإِعْدادِ جَوادِهِ عِنْدَ البابِ. وَجَلَسَ الكُلُّ في صَمْتٍ يُراقِبونَ، وَفَجْأَةً شَقَّ الصَّمْتَ صَوْتُ ماسْكيو وَهُوَ يَقولُ: «أَنا أَدْفَعُ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُنَيْهًا.»

فَقالَ إِلْزِفِير بِصَوْتٍ عالٍ دُونَ أَنْ يَسْتَديرَ أَوْ يَنْظُرَ إِلى ماسْكيو: «وَأَنا أَدْفَعُ عِشْرِينَ جُنَيْهًا.»

قالَ ماسْكيو: «واحِدًا وَعِشْرِينَ.»

وَهَكَذا اسْتَمَرَّتِ المُزايَدةُ بَيْنَهُما حَتَّى أَوْصَلَها ماسْكيو إلى واحِدٍ وَتِسْعينَ جُنَيْهًا، وَالشَّمْعةُ ما زالَتْ تَحْتَرِقُ وَالدَّبُّوسُ ما زالَ مَغْروزًا بِها.

قالَ المَنْدوبُ: «يا لَلْغَباءِ! ما هذا العِنادُ؟ يا سَيِّدُ بلُوك، وَفِّرْ عَلى نَفْسِكَ العَناءَ وَالمالَ، وَدَعِ الفُنْدُقَ لِهَذا الرَّجُلِ فَإِنِّي أَراهُ مُصَمِّمًا عَلى أَنْ يَفوزَ بِهِ. وَيُمْكِنُني أَنْ أُعْطيَكَ فُنْدُقَ «الفَرَسِ الأَبْيَضِ» في بِرِدْ بُورت، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هذا الفُنْدُقِ بِكَثيرٍ.»

لَمْ يَكْتَرِثْ إلْزِفِير بِهِ وَقالَ: «مِائَةَ جُنَيْهٍ.»

قالَ ماسْكيو: «مِائَةً وثَلاثينَ جُنَيْهًا.» وَاسْتُؤْنِفَ المَزادُ حَتَّى قَال إلْزِفِير: «مِائَةً وَتِسْعينَ جُنَيْهًا.»

فَقالَ ماسْكيو: «مِائَتَي جُنَيْهٍ.» وَسَقَطَ الدَّبُّوسُ.

ظَنَنْتُ أَنَّ إلْزِفِير سَيَنْقَضُّ عَلى ماسْكيو كَوَحْشٍ كاسِرٍ، إلَّا أَنَّهُ نَهَضَ واقِفًا وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ، ثُمَّ جَلَسَ ثانِيَةً في صَمْتٍ تامٍّ.

اِلْتَفَتَ المَنْدوبُ إلى إلْزِفِير وَسَأَلَهُ: «أَتَرْغَبُ في اسْتِئْجارِ فُنْدُقِ «الفَرَسِ الأَبْيَضِ» في بِرِد بُورت، فَبِالقُرْبِ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ صالِحةٌ لِابْنِكَ؟» وَأَوْمَأَ إلَيَّ بِوَضْعِ يَدِهِ عَلى ذِراعي ظانًّا أَنَّني ابْنُ إلْزِفِير.

فَرَدَّ إلْزِفِير قائِلًا: «شُكْرًا يا سَيِّدي. إنَّني حينَ أُغادِرُ هذا المَكانَ فَلَنْ أُديرَ أَيَّ فُنْدُقٍ آخَرَ.»

وَرَحَلَ المَنْدوبُ وَجَلَسَ إلْزِفِير واضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلى المِنْضَدةِ.

# الفَصْلُ الثَّامِنُ

# مُتَلَصِّصٌ بِالبابِ

قابَلَ أَهْلُ القَرْيةِ ماسْكيو أَيْنَما حَلَّ بَعْدَ ذلِكَ بِنَظَراتِ البُغْضِ وَالكَراهِيةِ، فَاعْتَكَفَ في دارِهِ أَيّامًا. وَقالَ البَعْضُ إِنَّهُمْ رَأَوْهُ يَذْهَبُ إلى وِيماوِث لِيُقابِلَ مُحَصِّلي ضَرائِبِ الدَّوْلةِ، وَإِنَّهُ فَعَلَ ذلِكَ كَيْ يَتَّفِقَ مَعَهُمْ عَلى إِرْسالِ رِجالِهِمْ لِضَبْطِ المُهَرِّبينَ.

وَصَلَتْ هذِهِ الأَنْباءُ إلى سَمْعِ إِلْزِفير، فَأَوْقَفَ عَمَليّاتِ التَّهْريبِ الَّتي كانَ يَقومُ بِها -بَعْضَ الوَقْتِ- حَتّى كانَ ذاتَ مَساءٍ أَخْبَرَني فيه أَنَّ هُناكَ شِحْنَةً مِنَ البَضائِعِ تَنْتَظِرُ في سانْت مالُو وَلا يُمْكِنُ الاحْتِفاظُ بِها هُناكَ مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ ذلِكَ. وَلأَنَّ عُيونَ ماسْكيو كانَتْ مُنْبَثَّةً في كُلِّ مَكانٍ وَلا تَكُفُّ عَنْ مُراقَبَتِنا، كانَ مِنْ غَيْرِ المُمْكِنِ جَلْبُ البَضائِعِ إلى مونْفِليت؛ لِذا أَمَرَ سَفينةَ البُوناڤِنْشَر الَّتي تَحْمِلُ تِلْكَ البَضائِعِ أَنْ تَتَوَجَّهَ شَمالًا إلى مَكانٍ يُسَمّى بايْجروف هُول بِالقُرْبِ من هُورْهِدْ. وَقَدْ ظَلَّ الرِّجالُ يَسْتَعْمِلونَ ذلِكَ المَكانَ كَمَخْبإٍ عِدَّةَ سَنَواتٍ قَبْلَ اسْتِعْمالِ مَقْبَرةِ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ.

قالَ: «يَجِبُ أَنْ نَكونَ هُناكَ في هُورْهِدْ مُسْتَعِدّينَ بِجِيادِنا في السّاعةِ الخامِسةِ مِنْ صَباحِ الغَدِ، وَكُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ بَكَّرْنا عَنْ ذلِكَ لِأَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ في الخامِسةِ، وَلَكِنَّ السَّفينةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ قَبْلَ ذلِكَ الحِينِ.»

وَبَيْنَما كانَ يَتَكَلَّمُ شَعَرْتُ بِهَواءٍ بارِدٍ يَلْفَحُ ظَهْري، فَتَلَفَّتُّ حَوْلي لِأَرى هَلْ هُناكَ نافِذَةٌ مَفْتوحَةٌ فَلَمْ أَجِدْ. وَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ البابِ مِنْ مَكاني، فَنَهَضْتُ وَذَهَبْتُ نَحْوَ البابِ فَلَمَحْتُهُ يَتَحَرَّكُ فَأَسْرَعْتُ بِفَتْحِهِ وَخَرَجْتُ إلى الطَّريقِ، وَلَكِنَّ الظَّلامَ كانَ دامِسًا، فَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ الأمْواجِ مِنْ بُعْدٍ، لِذَلِكَ عُدْتُ إلى الغُرْفةِ.

سَأَلَني إلْزِقِير: «ما الخَبَرُ؟»

أَجَبْتُ: «لَقَدْ تَخَيَّلْتُ شَخْصًا يَسْتَرِقُ السَّمْعَ بِالبابِ. أَلَمْ تَشْعُرْ بِنَسْمةِ هَواءٍ بارِدةٍ كانَتْ تَهُبُّ عَلَيْنا مِنْ ناحِيَةِ البابِ؟»

قالَ: «لا، وَلَكِنَّ الجَوَّ اللَّيْلَةَ بارِدٌ ولا شَكَّ.»

قُلْتُ: «ما زِلْتُ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ، قَدْ يَكونُ هُناكَ شَخْصٌ يَتَجَسَّسُ عَلَيْنا. يَحْسُنُ بِنا أَنْ نَأْخُذَ الشَّمْعَةَ وَنُفَتِّشَ المَكانَ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ خُلُوِّهِ.»

قالَ إلْزِقِير: «لا تَقْلَقْ، فَالهَواءُ البارِدُ هَو الَّذي دَفَعَ البابَ. وَلَكِنِ افْعَلْ ما تُريدُ.»

أَخَذْنا الشَّمْعَةَ وَطُفْنا بِالمَكانِ فَلَمْ نَجِدْ أَثَرًا لِأَحَدٍ، فَضَحِكَ إلْزِقِير وَعاوَدْنا حَديثَنا.

قالَ: «لَمْ يَبْقَ لَنا في هذا المَكانِ سِوَى أُسْبوعَيْنِ، وَكَمْ يُحْزِنُني أَنْ أَرى هذِهِ الأَبْوابَ موصَدةً في وَجْهي بَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ وَعائِلَتي في المَكانِ ما يَزيدُ

عَنْ مِائَةِ عامٍ. وَلَكِنْ ما بِاليَدِ حِيلةٌ، غَدًا إنْ شاءَ اللهُ نَبْحَثُ عَنْ مَنْزِلٍ قُرْبَ البَحْرِ بِالقُرْبِ مِنْ بايْجروف هُول. إنَّ بايْجروف هُول كَهْفٌ كَبيرٌ سَنَجِدُ فِيهِ مُتَّسَعًا لِبَضائِعِنا، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ المُهَرِّبون عَلى مَدَى مِئاتِ السِّنينَ.»

كُنْتُ أُفَكِّرُ في أُمورٍ أُخرَى، وَلَمْ أُجِبْهُ فَقالَ: «أَنْتَ مُتْعَبٌ يا فَتَى! اِذْهَبْ إلى فِراشِكَ، فَغَدًا لَنْ نَنامَ إلَّا قَليلًا.»

كُنْتُ مُتْعَبًا حَقًّا كَما قالَ إلْزِفِير، وَلَكِنِّي لَمْ أَنَمْ. فَقَدْ شَعَرْتُ بِالحُزْنِ لِمُغادَرةِ قَرْيةِ مونْفِليت وَتَرْكِ جريس ماسْكيو. وَمَعَ أَنَّني كُنْتُ صَبيًّا فَقَدْ كُنْتُ أَزْدادُ تَعَلُّقًا بِها، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَأَهيمُ بِها الهُيامَ الَّذي يَقْوَى عَلَيْهِ فَتًى في مِثْلِ سِنِّي. وَكانَتْ عالِمةً بِكُلِّ أَسْراري، وَقَدْ أَخْبَرْتُها سِرَّ السِّرْدابِ وَمَخْبَإِ المُهَرِّبينَ، لِأَنِّي كُنْتُ واثِقًا أَنَّها لَنْ تَبوحَ بِأَسْراري لِأَحَدٍ قَطُّ، حَتَّى لِأَبيها. وَلَمَّا سَمِعَتْ عَنِ المُهَرِّبينَ قالَتْ:

«اِسْمَعْ يا جُون، سَأَضَعُ دائِمًا شَمْعَةً مُضاءةً في نافِذَتي طَوالَ لَيالي الشِّتاءِ فَتَبْدو كَمَنارةٍ لِلسُّفُنِ الَّتي تَعْبُرُ البَحْرَ، وتَراها أَنْتَ.»

وَقَدْ وَفَتْ بِوَعْدِها. وَرَأَى كَثيرونَ الشَّمْعَةَ المُضاءةَ فَأَطْلَقوا عَلَيْها اسْمَ «مَنارةِ ماسْكيو» وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سَبَبَ إقامَتِها أَحَدٌ سِوايَ.

وَعِنْدَما وَجَدْتُ نَفْسي عَلى أُهْبةِ الرَّحيلِ، الَّذي قَدْ يَكونُ لِلأَبَدِ، قَرَّرْتُ أَنْ أُقابِلَ جرِيس لِأُوَدِّعَها وَأُخْبِرَها بِعَزْمي عَلى السَّفَرِ.

# الفَصْلُ التَّاسِعُ

## جرِيس ماشكيو

لَنْ أنْسَى اليَوْمَ التّالِيَ ما حَييتُ. فَقَدْ ذَهَبْتُ إلى غابةِ القَصْرِ بِالقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِ جرِيس، فَوَجَدْتُ تَجْويفًا صَغيرًا عَلى سَفْحِ التَّلِّ المُجاوِرِ لِلْمَنْزِلِ، يَتَّسِعُ لِغُلامٍ في حَجْمي كَيْ يَرْقُدَ فيهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ العُمْقِ بِحَيْثُ يَحُولُ دونَ النَّظَرِ مِنْهُ. فَرَقَدْتُ هُناكَ وَانْتَظَرْتُ.

كانَ اليَوْمُ صَحْوًا، وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ دافِئَةً، وَالرِّياحُ ساكِنَةً. وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى مِنْ مَكاني سُحُبَ الغُبارِ المُتَصاعِدةَ خَلْفَ العَرَباتِ المارَّةِ عَلى الطَّريقِ. وَبَدَتْ فُروعُ الأشْجارِ مُورِقَةً، وَبَراعِمُ الأزْهارِ البَرِّيَّةِ مُتَفَتِّحَةً. فَتَحْتُ العُلْبَةَ المُعَلَّقَةَ في رَقَبَتي، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُ بِإمْعانٍ المَكْتوبَ في الوَرَقَةِ:

قَدْ يَحْيا الإنْسانُ ثَمانينَ عَامًا...

ضَحِكْتُ مِنْ نَفْسي، كَمْ كُنْتُ أَبْلَهَ حِينَ تَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ الألْماسَ وَصَناديقَ الذَّهَبِ! ومَعَ ذلِكَ فالماسةُ مَحْفوظَةٌ في مَكانٍ ما، وَلَكِنْ أَيْنَ؟

حَدَّثَتْني جرِيس عَنِ اعْتِزامِ إلْزفِير تَرْكَ فُنْدُقِ «وايْنَط». وَلَمْ تَذْكُرْ أَباها بِسُوءٍ، وَلَكِنْ بَدا عَلى وَجْهِها أَنَّها تَتَأَلَّمُ مِنْ تَصَرُّفاتِهِ. كَما أَظْهَرَتْ حُزْنَها لِرَحيلي، وَقَدْ سَعِدْتُ لِما بَدا عَلَيْها مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى لِأَنّي تَأَكَّدْتُ وَقْتَها مِنْ شُعورِها نَحْوي.

قالَتْ جرِيس: «أَمْسِ في نَحْوِ التَّاسِعة (وَكانَ ذلِكَ في نَفْسِ الوَقْتِ الَّذي كُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِيهِ مَعَ إلْزِقِير) هَبَّ والِدي مِنْ مَكانِهِ قائِلًا: «سَأَخْرُجُ إلى الحَديقَةِ أَسْتَنْشِقُ الهَواءَ. وَأَثارَ ذلِكَ دَهْشَتي لِأَنَّ اللَّيْلَةَ كانَتْ شَديدَةَ البُرودةِ، عاصِفةَ الرِّياحِ. وَعادَ بَعْدَ حَوالَي ساعةٍ وَأَخْبَرَني أَنَّهُ سَيَرْحَلُ في الحالِ إلى وِيماوِث عَلى أَنْ يَعودَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَأَخَذَ مِعْطَفَهُ وَقُبَّعَتَهُ وَمَضى.»

رَوَتْ جرِيس هذا، وَهيَ مُتَعَجِّبَةٌ مِنْ تَصَرُّفاتِ والِدِها. أَمَّا أَنا فَقَدْ أَثارَ حَدِيثُها الخَوْفَ في نَفْسي: تُرَى ما السَّبَبُ في ذَهابِ ماسْكيو المُفاجِئِ إلى وِيْماوِث؟

تَرَكْتني جرِيس، وَكانَ الوَقْتُ مُتَأَخِّرًا حِينَ عُدْتُ لِلفُنْدُقِ، وَقَدِ امْتَلأَ صَدْري بِالأَسَى، وَأَثْقَلَهُ الهَمُّ والحُزْنُ، وَشَعَرْتُ بِأَنِّي مُقْبِلٌ عَلى أَيَّامٍ حافِلَةٍ بِالمَتاعِبِ وَالعَقَباتِ.

# الفَصْلُ العاشِرُ

# القَبْضُ عَلى ماسْكيو

تَرَكْتُ الفُنْدُقَ، مَعَ إلْزِفِير، قَبْلَ الميعادِ الَّذي سَبَقَ اتِّفاقُنا عَلَيْهِ، لِأَنَّ أَخْبارًا وَصَلَتْنا مِنْ أَحَدِ بَحّارةِ السَّفينةِ تُنْبِئُنا بِأَنَّ ميعادَ وُصولِها قَدْ تَقَدَّمَ ساعَتَيْنِ.

كانَتِ السّاعةُ السّابِعةَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى قِمَّةِ التَّلِّ، الَّذي يَبْعُدُ خَمْسةَ عَشَرَ ميلًا عَنْ هُوزْهِدْ. وَأَدْرَكَنا الظَّلامُ بَعْدَ مَسيرةِ نِصْفِ ساعةٍ، إلّا أَنَّ اللَّيْلةَ كانَتْ مُقْمِرةً نَوْعًا ما أَكْثَرَ مِنْ سابِقَتِها، وَكانَ النَّسيمُ عَليلًا وَالسَّماءُ صافِيةً. وَقَدْ سَلَكْنا الطَّريقَ في صَمْتٍ مُسْتَرْشِدينَ، بِالحِجارةِ البَيْضاءِ الَّتي وَضَعَها مُحَصِّلُو ضَرائِبِ الدَّوْلةِ، كَعَلاماتٍ، عَلى الطَّريقِ. وَوَصَلْنا إلى قِمَّةِ هُوزْهِدْ وَهِيَ أَعْلَى بُقْعةٍ على الشّاطِئِ. وبَيْنَ القِمَّةِ وَالشّاطِئِ جُرْفٌ صَخْرِيٌّ شَديدُ الانْحِدارِ يَسْتَحيلُ تَسَلُّقُهُ. لَكِنْ يَخْتَرِقُ ذلِكَ الجُرْفَ مَمَرٌّ مُتَعَرِّجٌ يُمْكِنُ سُلوكُهُ بِبُطْءٍ. وَقَدْ سَلَكْنا ذلِكَ المَمَرَّ نازِلَيْنِ، فَوَصَلْنا الشّاطِئَ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرةَ دَقيقةً.

لَمْ نَكُنْ وَحْدَنا، فَقَدْ رَأَيْتُ هُناكَ حَوالَي عِشْرِينَ رَجُلًا، البَعْضُ واقِفٌ عَلى الرِّمالِ، والبَعْضُ على الصُّخورِ، كَما كانَ بَعْضُهُمْ مُمْسِكًا بِالجِيادِ. وَكانوا يَتَحَدَّثونَ بِأَصْواتٍ خافِتةٍ. وَجَلَسْنا، وَلَمْ يَطُلِ انْتِظارُنا، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْنا شَخْصٌ، وَإذْ بِهِ راتْسي.

قالَ: «كُنْتُ أَحْيانًا أُفَكِّرُ أَنْ أَهْجُرَ القَرْيَةَ يا إِلْزِفِير، وَلَكِنْ إذا فَعَلْتُ، فَمَنْ يُعْنى بِالقُبورِ بَعْدي؟»

وَكُنْتُ نِصْفَ نائِمٍ. وقُلْتُ لَهُ: «سَوْفَ يَجِدونَ مَنْ يَحِلُّ مَحَلَّكَ.»

جَلَسَ راتْسي بِجانِبي، وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ، إِلَّا أَنّي لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، إِذْ كُنْتُ أَشْعُرُ بِالنُّعاسِ. وَفَجْأَةً سَمِعْنا صَيْحَةً تُدَوّي في الفَضاءِ فَنَهَضْنا جَميعًا وَاتَّجَهْنا نَحْوَ الشّاطِئِ صامِتينَ.

وَجَدْنا أَوَّلَ قارِبٍ قَدْ وَصَلَ إِلى الشّاطِئِ فَبَدَأْنا في تَفْريغِ ما عَلَيْهِ مِنْ بَضائِعَ. وَكانَ مَشْهَدًا عَجيبًا، فَالرِّجالُ يَتَحَرَّكونَ جَيْئَةً وَذَهابًا، في الضَّوْءِ



الذَّهَبِيِّ لِلْمَصابيحِ الَّتي أَنارَتْ لَهُمُ الطَّريقَ، وَهُمْ يَحْمِلونَ البَضائِعَ مِنَ القَوارِبِ وَيَضعونَها عَلى ظُهورِ الجِيادِ الواقِفَةِ.

بَعْدَ مُضيٍّ ساعَتَيْنِ، كانَ الرِّجالُ قَدِ انْتَهَوْا مِنْ نَقْلِ الحُمولَةِ وَبَدَأَتِ الجِيادُ تَتَحَرَّكُ، بَعْضُها مَحَمَّلٌ بِالصَّناديقِ وَالبَعْضُ بِالبَراميلِ. وَبَدَأْنا في صُعودِ الطَّريقِ إِلى القِمَّةِ. وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى بِدايَةِ الطَّريقِ لَمَحْتُ شَيْئًا يَتَحَرَّكُ خَلْفَ شَجَرَةٍ، كَما لَمَحَ ذلِكَ غَيْري. وَبَدَأَ الرِّجالُ يَصْرُخونَ، ثُمَّ رَأَيْتُ شَخْصًا يَعْدُو هارِبًا، وَفي أَثَرِهِ عِدَّةُ رِجالٍ، كانُوا قَدْ وَضَعوا أَحْمالَهُمْ عَلى الأَرْضِ وَأَسْرَعوا خَلْفَهُ.

وَكانَ أَقْرَبُ الرِّجالِ إِلَيْهِ دامِنْ، وَجارِتْ. وَكُنْتُ أَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ الرَّجُلِ الَّذي يَجْري مِنْهُما. وَكانَ يَجْري بِسُرْعَةٍ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّها مُمْكِنَةٌ.

ثُمَّ أَدْرَكْتُ لِماذا كانَ يَجْري بِهَذِهِ السُّرْعَةِ. إِنَّهُ كانَ يَجْري لِلنَّجاةِ بِحَياتِهِ. لَقَدْ كانَ المَوْتُ نَصيبَهُ إِذا قُبِضَ عَلَيْهِ. وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ.. كانَ ماسْكيو. وَاسْتَمَرَّ مُنْطَلِقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَمَلٌ في نَجاتِهِ: فَقَدْ كانَ دامِنْ، وَجارِتْ أَسْرَعَ العَدَّائينَ في هذِهِ المِنْطَقَةِ مِنْ بلادِنا.

وَوَقَفْنا جَميعًا حَتَّى وَقَعَ الرَّجُلُ في يَدِ مُتَعَقِّبَيْهِ وَتَطَلَّعْتُ إِلى وَجْهِ إِلْزِفِير. لَقَدْ كانَ يَتَرَقَّبُ ذلِكَ، وَكانَ في انتِظارِهِ، وَقَدْ وَقَعَ ما كان يَنْتَظِرُهُ. وَكانَ قَدْ قَرَّرَ ما سَيَفْعَلُهُ. لَقَدْ قَرَأْتُ في وَجْهِهِ كَلِمَةَ المَوْتِ – المَوْتِ لماسْكيو.

سَمِعْتُ صَرْخَةً خافِتَةً، ثُمَّ رَأَيْتُ الرَّجُلَيْنِ عائِدَيْنِ وَبَيْنَهُما ماسْكيو يَجُرّانِهِ مِنْ ذِراعَيْهِ. أَصابَني غَثَيانٌ مِنْ ذٰلِكَ المَنْظَرِ، فَقَدْ كانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرى فيها رَجُلًا يُعامَلُ هَكَذا. وَقَدْ سَقَطَتْ قُبَّعَتُهُ وَتَدَلَّى شَعْرُهُ فَوْقَ وَجْهِهِ الشّاحِبِ، وَتَعالَتِ الأَصْواتُ غاضِبَةً تُنادي: «أَطْلِقوا عَلَيْهِ النّارَ.» وَيَقولُ آخَرونَ: «اُشْنُقوهُ، اِقْذِفوا بِهِ مِنْ أَعْلَى الجُرْفِ إِلى القاعِ.» وَأَبْصَرَ أَحَدُهُمْ مُسَدَّسًا تَحْتَ مِعْطَفِ ماسْكيو، فَانْتَزَعَهُ وَرَمَى بِهِ عِنْدَ قَدَمَيِ إِلْزِفير. حينَئِذٍ عَلا صَوْتُ إِلْزِفير فَوْقَ الجَميعِ آمِرًا: «لا يَلْمِسْهُ أَحَدٌ مِنْكُم. أَلا تَعْلَمونَ أَنَّهُ قاتِلُ ابني؟! أَوْثِقُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَاتْرُكوهُ لي وَحْدي وَاذهَبوا.» لَمْ يَبْقَ غَيْرُ لَحَظاتٍ قَصيرَةٍ عَلى شُروقِ الشَّمْسِ، وَتَحَرَّكَ الرِّجالُ جَميعُهُمْ بِجِيادِهِمْ، وَبَقِينا نَحْنُ الثَّلاثَةَ وَحْدَنا: ماسْكيو وَإِلْزِفير، وَأَنا. وَكانَ المُسَدَّسُ عَلى الأَرْضِ عِنْدَ قَدَمَيِ إِلْزِفير.

# الفَصْلُ الحادي عَشَرَ

# مَوْتُ ماسْكيو

خَوْفًا مِنَ البَقاءِ وَرُؤْيَةِ نِهايةِ ماسْكيو هَمَمْتُ بِأَنْ أَلْحَقَ بِالرِّجالِ، لَكِنَّ إِلْزِفير ناداني قائِلًا: «اِنْتَظِرْ يا جُون، فَقَدْ أَحْتاجُ إِلَيْكَ فِيما بَعْدُ.» وَانْتَظَرْتُ دُونَ أَنْ أَدْري كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْتاجَ إِلَيَّ؟ يَحْتاجُ إِلَيَّ في ماذا؟

جَلَسَ ماسْكيو مُوثَقًا عَلى الأَرْضِ، وَظَهْرُهُ إلى الصَّخْرةِ، وَكانَ شاحِبَ اللَّوْنِ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ، عَلى حينَ وَقَفَ إِلْزِفير أَمامَهُ، مُمْسِكًا بِمِصْباحٍ، وَمُحَمْلِقًا في وَجْهِهِ.

كُنَّا نَسْمَعُ وَقْعَ حَوافِرِ الخَيْلِ عَلى أَرْضِ المَمَرِّ، تَحْتَ الأَحْمالِ الثَّقيلةِ. وَتَلاشَتْ أَصْواتُ وَقْعِ الأَقْدامِ الذَّاهِبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فازْدادَ السُّكونُ وَعَمَّتِ الرَّهْبةُ، وَلَمْ يَكُفَّ إِلْزِفير عَنِ النَّظَرِ إلى وَجْهِ ماسْكيو الشَّاحِبِ.

وَقالَ ماسْكيو لإِلْزِفير: «أَنا ضابِطٌ قَضائِيٌّ، وَحَتْمًا سَيُعْدِمونَكَ إِنْ لَمْ تُطْلِقْ سَراحي وَتَتْرُكْني.»

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كَلِماتِهِ كانَتْ كَلِماتِ بُطولةٍ وَشَجاعةٍ، فَقَدْ كانَتْ -فيما يَبْدو- مُجَرَّدَ تَظاهُرٍ بِالشَّجاعةِ؛ فَإِنَّ صَوْتَهُ كانَ يَرْتَجِفُ رُعْبًا.

رَدَّ عَلَيْهِ إِلْزِفير وَكَأَنَّهُ قاضٍ يُحاكِمُ مُجْرِمًا: «لا تُحَدِّثْني عَنِ الإِعْدامِ،



فَلَنْ تكونَ سَبَبًا في إعْدامِ أَحَدٍ وَلَنْ تَرى أَحَدًا يُعْدَمُ بَعْدَ الآنَ. أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ تُراقِبُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ وَالدَّبُّوسَ يَسْقُطُ لِتَطْرُدَني مِنْ بَيْتي؟ اليَوْمَ سَتُراقِبُ شَمْعَةً أُخْرَى تَحْتَرِقُ وَدَبُّوسًا آخَرَ يَسْقُطُ. وَعِنْدَما يَسْقُطُ سَأُطْلِقُ رَصاصةً مِنْ مُسَدَّسِكَ عَلى رَأْسِكَ وَأَقْتُلُكَ كَما لَوْ كُنْتَ وَحْشًا كاسِرًا.»

أَخَذَ إِلْزِقِير شَمْعَةً وَثَبَّتَ فِيها دَبُّوسًا عَلى مَسافَةِ بُوصَةٍ مِنْ أَعْلاها، وَثَبَّتَ الشَّمْعَةَ فَوْقَ الحَشائِشِ أَمامَ ماسْكيو وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ.

لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ ماسْكيو، وَلَوْ سُئِلْتُ مُنْذُ ساعةٍ عَنْ رَأْيي لَقُلْتُ إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ القَتْلَ. وَلَكِنّي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَخَذْتُ أَبْتَهِلُ إلى اللهِ، في سَريرَتي، أَنْ يُتيحَ لَهُ فُرْصَةَ النَّجاةِ وَالهَرَبِ. وَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ مِن إِلْزِقِير، وَبِالغَثَيانِ مِنَ التَّفْكيرِ فِيما اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ.

اخْتَفَتِ النُّجومُ وَبَدَتْ بَشائِرُ الصَّباحِ تَلوحُ، وَلَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ. وَلَبِسَ الكَوْنُ كُلُّهُ ثِيابًا رَمادِيَّةً: السَّماءُ وَالصُّخورُ وَالأَشْجارُ. وَكانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ عَلاهُ هذا اللَّوْنُ الرَّمادِيُّ هوَ وَجْهَ ماسْكيو، كَما ظَهَرَتْ خُطوطٌ قاتِمةٌ تَحْتَ عَيْنَيْهِ، وَتَجَمَّدَتْ بَعْضُ قَطَراتِ الدَّمِ عَلى جانِبِ وَجْهِهِ إِثْرَ إصابَتِهِ بِحَجَرٍ.

أَبْقَى ماسْكيو عَيْنَيْهِ مُثَبَّتَتَيْنِ على الأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيَّ، وَلَمْ أَرَ في عَيْنَيْهِ سِوَى العَجْزِ الَّذي يُشاهَدُ في نَظَراتِ حَيَوانٍ ضَعيفٍ يُوشِكُ أَنْ يَموتَ. وَحَتَّى تِلْكَ اللَّحْظةِ لَمْ أَكُنْ لاحَظْتُ أَيَّ شَبَهٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنَتِهِ جِريس، أَمَّا الآنَ فَقَدْ خُيِّلَ لي أَنَّ جِريس تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ مِنْ وَراءِ نَظَراتِهِ، وَلَمْ أَقْوَ عَلى

تَحَمُّلِ المَوْقِفِ وَرُؤْيَتِهِ يُقْتَلُ أَمامَ عَيْنَيَّ.

تَطَلَّعَ ماسْكيو إلى الشَّمْعةِ وَكَأَنَّما يَتَطَلَّعُ إلى دَقائِقِ حَياتِهِ وَهيَ تَتَساقَطُ قَطْرَةً قَطْرَةً مَعَ قَطَراتِ الشَّمْعَةِ المُتَساقِطَةِ؛ وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً سَوْفَ يَسْقُطُ الدَّبُّوسُ.

وَأَخيرًا قالَ مُسْتَعْطِفًا: «لا تَقْتُلْني يا سَيِّد بلُوك. إنَّ لي ابْنَةً وَحيدَةً لَيْسَ لَها عائِلٌ سِوايَ، فَهَلْ تَسْمَحُ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَحْرِمَ فَتاةً صَغيرَةً عائِلَها الوَحيدَ في هذا العالَمِ؟ وَهَلْ تَرْضَى أَنْ يَحْمِلوا إلَيْها جُثَّةَ أَبيها مُلَطَّخَةً بِالدِّماءِ وَالرِّمالِ، بَعْدَ أَنْ يَجِدوهُ صَريعًا عَلى الشَّاطِئِ؟»

رَدَّ إِلْزِڤِير قائِلًا: «لَقَدْ كانَ لي ابْنٌ، ابْنٌ وَحيدٌ، أَحْضَروهُ لي صَريعًا. أَتَدْري مَنْ صَرَعَهُ؟ وَأَيَّ مُسَدَّسٍ سَلَبَهُ الحَياةَ؟ لَقَدْ كانَ هذا المُسَدَّسَ نَفْسَهُ الَّذي سَأَقْتُلُكَ بِهِ. أَسْرِعْ، وَسَلْ رَبَّكَ الرَّحْمَةَ وَالغُفْرانَ، فَلَيْسَ هُناكَ وَقْتٌ لِصَلاةٍ طَويلَةٍ.» ثُمَّ الْتَقَطَ المُسَدَّسَ وَأَدارَ ظَهْرَهُ لِماسْكيو وَأَخَذَ يَمْشي بِبُطْءٍ جَيْئَةً وَذَهابًا.

أَلْهَبَتْ كَلِماتُ ماسْكيو عَنِ ابْنَتِهِ غَضَبَ إِلْزِڤِير، وَذَكَّرَتْهُ بِمَصْرَعِ ابْنِهِ داڤِيد. وَلَكِنَّها نَفَذَتْ إلى قَلْبي وَذَكَّرَتْني بِجِريس، فَرُحْتُ أَتَوَسَّلُ إلى إِلْزِڤِير أَنْ يَرْجِعَ عَنْ عَزْمِهِ. وَتَرَكَني حَتَّى أَتْمَمْتُ كَلامي ثُمَّ قالَ:

«أَنْتَ غُلامٌ عَطوفٌ، وَهذا ما يَجْعَلُني أُحِبُّكَ. كانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهُ وَأَنا في سَوْرَةِ غَضَبي، أَمَّا الآنَ بَعْدَ التَّفْكيرِ، لا أَقْدِرُ عَلى قَتْلِ رَجُلٍ مُوثَقٍ

اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، حَتَّى وَلَوْ كانَ قَتَلَ لي عِشْرينَ ابْنًا. ولكِنْ لَقَدْ تَرَكَهُ لي رِجالي، وَإذا تَرَكْتُهُ أَنا فَسَيَعْمَلُ عَلى إعْدامِهِمْ، وَلِذا لا بُدَّ لي مِنْ قَتْلِهِ.»

ظَلَلْتُ مُمْسِكًا بِذِراعِ إلْزِڤِير بِكِلْتا يَدَيَّ أَرْجوهُ أَنْ يَعْفوَ عَنْ ماسْكيو، وَلكِنَّهُ دَفَعَني عَنْهُ، وَرَأَيْتُ تَصْميمَهُ عَلى قَتْلِهِ.

عِنْدَما عُدْنا إلى حَيْثُ كانَ ماسْكيو جالِسًا، رَأَيْتُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ تُشْرِقُ مِنْ بَعيدٍ عَلى سَطْحِ المياهِ، كَما رَأَيْتُ الدَّبُّوسَ يَميلُ بِبُطْءٍ. وَأَدْرَكْتُ كَما أَدْرَكَ ماسْكيو أَنَّ الوَقْتَ أَزِفَ.

عادَ ماسْكيو يَسْتَعْطِفُ إلْزِڤِير، وَيَعِدُهُ بِتَقْديمِ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ أَخَذَ يَزيدُهُ مِنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ إلى خَمْسَةِ آلافِ ثُمَّ إلى عَشَرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ مُقابِلَ إخْلاءِ سَبيلِهِ. كَما أَقْسَمَ بِأَنْ يَهْجُرَ القَرْيَةَ بِأَكْمَلِها وَيُعيدَ الفُنْدُقَ إلى إلْزِڤِير. وَكانَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَإلْزِڤِير جامِدٌ كَالصَّخْرِ لا يَتَحَرَّكُ. وَأَعَدَّ المُسَدَّسَ لإطْلاقِ النّارِ، وسَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِأَصابِعي وَأَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ حَتّى لا أَسْمَعَ وَلا أَرى؛ وَسَقَطَ الدَّبُّوسُ!

رَفَعَ إلْزِڤِير المُسَدَّسَ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ لِأَمْنَعَهُ مِنْ إطْلاقِهِ. وَمَضى بَعْضُ الوَقْتِ وَنَحْنُ نَتَصارَعُ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ رَصاصةٌ مِنَ المُسَدَّسِ. كَيْفَ؟ لا أَدْري! وَتَرَكْتُ إلْزِڤِير وَنَظَرْتُ إلى ماسْكيو فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بِشْرًا، وَرَأَيْتُهُ يَتَطَلَّعُ إلى أَعْلَى الطَّريقِ. وَظَنَنْتُهُ يَحْمَدُ السَّماءَ عَلى نَجاتِهِ، وَلَكِنَّ أَحْداثًا جَديدةً تَوالَتْ: فَقَدْ سَمِعْتُ أَصْواتًا آتيةً مِنْ بَعيدٍ، وَتَلَفَّتَ إلْزِڤِير حَوْلَهُ لِيَرى مِنْ أَيْنَ تَأْتي، أَمّا ماسْكيو فَاسْتَمَرَّ ناظِرًا إلى أَعْلَى الطَّريقِ.



اقْتَرَبَتِ الأصْواتُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَفي لَحْظَةٍ كانَ هُناكَ عِشْرونَ رَجُلًا يَقِفونَ عِنْدَ قِمَّةِ الطَّريقِ، وَقَدْ بَدا لَنا جَلِيًّا في ضَوْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ أَنَّهُمْ جُنودٌ. وَأَدْرَكْتُ -كَما أَدْرَكَ إلْزِڤِير- أَنَّ ماسْكيو كانَ قَدِ اسْتَدْعاهُمْ وَأَعَدَّ مِنْهُمْ كَمينًا لِإمْساكِنا وَنَحْنُ نَرْتَقي الطَّريقَ، إلَّا أَنَّ وُصولَ السَّفينَةِ مُبَكِّرًا عَنْ ميعادِهِ كانَ سَبَبًا في تَأَخُّرِهِمْ.

صَرَخَ صَوْتٌ: «باسْمِ القانونِ قِفْ!»

صاحَ إلْزِڤِير: «رَبّاهُ! لَقَدْ ضِعْنا! إنَّهُمْ جُنودُ المَلِكِ، وَما دُمْنا سَنَموتُ فَلْيَمُتْ هذا الرَّجُلُ أَيْضًا.» وَجَرَى نَحْوَ ماسْكيو لِيَضْرِبَهُ بِالمُسَدَّسِ، فَصَرَخَ ماسْكيو آمِرًا الجُنودَ: «هَيّا! هَيّا! أَسْرِعوا وَأَطْلِقوا رَصاصَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ عَلَيَّ رَصاصَهُ.» هُنا انْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنْ أَعْلَى وَأَصابَتْ ماسْكيو في جَبْهَتِهِ فَسَقَطَ صَريعًا عَلى الحَشائِشِ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَيْهِ إلْزِڤِير.

قالَ إلْزِڤِير: «هَيّا، هَيّا إلى الجانِبِ الَّذي عَلى يَسارِنا، وَالْتَصِقْ بِالصَّخْرِ فَلَنْ يُصيبوكَ ما دُمْتَ تَحْتَمي بِهِ.» وَأَخَذَ يَعْدو. أَمّا أَنا فَسَقَطْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَلَمْ أَقْوَ عَلى التَّحَرُّكِ، وَشَعَرْتُ بِآلامٍ مُبَرِّحَةٍ في ساقِيَ اليُسْرَى.

عادَ إلَيَّ إلْزِڤِير قائِلًا: «يا إلهي! لَقَدْ أَصابوكَ.» ثُمَّ حَمَلَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ كَما لَوْ كُنْتُ طِفْلًا، غَيْرَ مُبالٍ بِالطَّلَقاتِ المُتَوالِيَةِ الَّتي كانَتْ تَنْهالُ عَلَيْنا، وَأَسْرَعَ بي إلى ما وَراءَ الصُّخورِ.

# الفَصْلُ الثَّانيَ عَشَرَ
# الصُّعودُ إلى القِمَّةِ

نَجَوْنا، وَلَكِنْ إلى حِينٍ - إلى أَنْ يَصْدُرَ الأمْرُ لِلْجُنودِ بِالنُّزولِ إلَيْنا وَالقَبْضِ عَلَيْنا. وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا سِوَى مُسَدَّسٍ فارِغٍ، وَعِنْدَ أَقْدامِنا كانَتْ تَرْقُدُ جُثَّةٌ هامِدَةٌ.

بَدَأَ إلْزِفِير الكَلامَ فَسَأَلَني: «أَتَسْتَطيعُ الوُقوفَ يا جُون؟ هَلْ بِساقِكَ كَسْرٌ؟»

قُلْتُ: «لا أَدْري، وَلَكِنِّي لا أَسْتَطيعُ الوُقوفَ، وَأَشْعُرُ بِأَلَمٍ شَديدٍ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الدِّماءَ قَدْ مَلأَتْ حِذائي.»

فَحَصَ إلْزِفِير ساقي، وَبالرَّغْمِ مِنْ لُطْفِهِ في الفَحْصِ، فَإنَّني شَعَرْتُ بِآلامٍ مُبرِّحَةٍ. قالَ: «نَعَمْ لَقَدْ كُسِرَتِ العَظْمَةُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ لِعِلاجِها الآنَ، دَعْني أُضَمِّدُها بِرِباطٍ، ثُمَّ نُفَكِّرُ فِيما نَعْمَلُهُ بَعْدَ ذلِكَ. أَمامَنا الآنَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الجُنودُ، وَإذا بَقِينا هُنا فَسَيَأْخُذونَكَ حَيًّا ثُمَّ يَشْنُقونَكَ في دُورْشِسْتَر. وَأَنْتَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تُقاتِلَ وَأَنْتَ مَكْسورُ السَّاقِ.»

اِنْتابَني شُعورٌ بِالغَثَيانِ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ. وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّني ما زِلْتُ في فُنْدُقِ وايْنَط، أَوْ في بَيْتِ خالَتي. وَشَجَّعَني إلْزِفِير قائِلًا: «لا تَيْأَسْ يا بُنَيَّ، فَهُناكَ سَبيلٌ لَمْ نَطْرُقْهُ بَعْدُ، وَلَوْ كُنْتَ سَليمَ السَّاقَيْنِ لَأَسْرَعْنا إلَيْهِ. وَمَعَ ذلِكَ تَجَلَّدْ (اصْبِرْ وَتَحَمَّلْ) وَدَعْنا نُحاوِلُ الآنَ. أَمامَنا دَرْبٌ ضَيِّقٌ

لا يَعْرِفُهُ الجُنودُ يُؤَدِّي إلى قِمَّةِ هُورْهِدْ، وَلَمْ أَسْمَعْ بِأَحَدٍ سَلَكَهُ مِنْ قَبْلُ لِشِدَّةِ ضِيقِهِ وَوُعورَتِهِ. دَعْني أَحْمِلُكَ، وَفي الأماكِنِ الَّتي لا تَسْمَحُ بِذَلِكَ حاوِلْ أَنْ تَزْحَفَ عَلى رُكْبَتَيْكَ وَيَدَيْكَ.»

كانَتْ مُخاطَرَةً رَهيبَةً، إِلَّا أَنَّها كانَتِ الفُرْصةَ الوَحيدةَ الباقيةَ أمامَنا، وَكانَ عَلَيْنا أَنْ نَغْتَنِمَها.

قُلْتُ: «أَوَّاهُ يا عَزيزي إِلْزِفِير، هَلُمَّ بِنا إِلَيْهِ بِسُرْعةٍ، فَخَيْرٌ لَنا أَنْ نَسْقُطَ عَلى الصَّخْرةِ وَنَموتَ مِنْ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْنا الجُنودُ وَنُعْدَمَ.»

حاوَلْتُ أَنْ أَقِفَ، فَلَمْ أُفْلِحْ، وَسَقَطْتُ عَلى الأَرْضِ صارِخًا مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ، فَحَمَلَني إِلْزِفِير بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَرَأْسي فَوْقَ كَتِفِهِ أَتَطَلَّعُ إلى الخَلْفِ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ الدَّرْبِ الضَّيِّقِ. وَأَلْقَيْتُ نَظْرةً أخيرةً عَلى ماسْكيو، وهُوَ مُلْقًى عَلى الأَرْضِ وَوَجْهُهُ نَحْوَ السَّماءِ.

وَضَعَني إِلْزِفِير بُرْهةً عَلى الأَرْضِ لِيَسْتَريحَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ في الصُّعودِ، وَنَظَرْتُ إِلى الدَّرْبِ فَهالَني ما رَأَيْتُ. رَأَيْتُ دَرْبًا يَتَّسِعُ بَعْضَ الاِتِّساعِ في بِدايَتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ في الضِّيقِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى لَيَبْدُوَ مِثْلَ خَطٍّ مَرْسومٍ عَلى وَجْهِ الصَّخْرِ. وَكانَتْ هُناكَ رائِحةٌ كَريهةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ بَقايا جُثَّةِ بَقَرةٍ سَقَطَتْ مِنْ أَعْلاهُ.

أَلْحَحْت عَلى إِلْزِفِير كَيْ يَتْرُكَني وَيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ، فَقالَ: «هَيَّا! هَيَّا! لَمْ يَعُدْ هُناكَ مَجالٌ لِتَغْييرِ خُطَّتِنا، وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوَى خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقةً وَيَلْحَقُ



بِنا الجُنودُ. وَإذا ارْتَقَيْنا القِمَّةَ فَسَوْفَ نُوَفِّرُ ساعةً بِأَكْمَلِها، لِأَنَّ الجُنودَ سَيُضَيِّعونَ بَعْضَ الوَقْتِ، بَعْدَ العُثورِ عَلى جُثَّةِ ماسْكيو. هَيَّا أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَلا تَفْتَحْهُما حَتَّى أُخْبِرَكَ.»

بَعْدَ لَحْظةٍ تَرَكْنا الشَّاطِئَ وَبَدَأَ إلْزِفْير يَتَسَلَّقُ الصَّخْرَ، وَكانَ يَتَحَسَّسُ الدَّرْبَ خُطْوَةً خُطْوَةً بِقَدَمَيْهِ. وَلَبِثْتُ مَحْمولًا مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ، حَتَّى وَصَلْنا إلى اِرْتِفاعٍ عالٍ فَشَعَرْتُ بِتَغَيُّرٍ في سُرْعةِ الرِّيحِ، وَأَخَذَتْ خُطواتُ إلْزِفْير تَتَباطَأُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. وَأَخيرًا قالَ: «جُون! سَأَتَوَقَّفُ هُنا قَليلًا، وَلكِنْ لا تَفْتَحْ عَيْنَيْكَ حَتَّى آمُرَكَ بِذلِكَ.» وَوَضَعَني عَلى الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلًا: «الدَّرْبُ هُنا ضَيِّقٌ جِدًّا وَلا يَسْمَحُ لي بِحَمْلِكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَزْحَفَ وَحْدَكَ. ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى الصَّخْرِ وَإيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إلى أَسْفَلَ.»

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ دَرْبًا لا يَتَجاوَزُ اِتِّساعُهُ قَدَمًا واحِدةً. وَبَدَأْتُ أَزْحَفُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ، وَكانَتِ الآلامُ المُبَرِّحةُ في ساقي تَتَضاعَفُ كُلَّما جَرَرْتُها خَلْفي.

صَرَخَ إلْزِفْير: «أَسْرِعْ! أَسْرِعْ!» وَكانَ إذا سَبَقَني تَوَقَّفَ لِأُدْرِكَهُ. وَعِنْدَما اتَّسَعَ الطَّريقُ بَعْضَ الشَّيْءِ انْحَنَى وَتَسَلَّقْتُ ظَهْرَهُ ثُمَّ نَهَضَ واقِفًا وَمَضَى في سَيْرِهِ.

نَظَرْتُ إلى أَسْفَلَ وَرَأَيْتُ البَحْرَ عَلى بُعْدٍ سَحيقٍ. وَكانَتِ الطُّيورُ تَطيرُ تَحْتَنا، وَتَذَكَّرْتُ البَقَرةَ الَّتي ماتَتْ نَتيجةَ سُقوطِها فَصَرَخْتُ مِنَ الخَوْفِ.

وَتَوَقَّفَ إلْزِفِير وَدَفَعَني لِأسْفَلَ فَانْبَطَحْتُ وَانْبَطَحَ مَعي قائِلًا: «أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَعُدَّ: واحِد، اِثْنين، ثَلاثة حَتَّى أَعْرِفَ...»

وَبَدا لي صَوْتُهُ بَعيدًا جِدًّا، ثُمَّ عادَ يَقولُ: «لَقَدِ اسْتَغْرَقْنا عَشْرَ دَقائِقَ كَيْ نَصِلَ إلى هُنا، وَلا يَزالُ أَمامَنا خَمْسُ دَقائِقَ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الجُنودُ إلى الشّاطِئِ، وَلَعَلَّهُمْ تَرَكوا واحِدًا مِنْهُم فَوْقَ القِمَّةِ، وَلَكِنِّي لا أُرَجِّحُ ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ هذا الدَّرْبَ. أَمامَنا الآنَ خَمْسونَ مِتْرًا فَقَطْ. جُون! لا تَخْذُلْني بِخَوْفِكَ هذا. إذا سَقَطْتَ جَذَبْتَني مَعَكَ. ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى الأَرْضِ وَهَيَّا بِنا، وَإلَّا فَسَنَهْلَكُ إذا بَقِينا هُنا دَقيقَةً واحِدَةً.»

قُلْتُ: «لا أَقْدِرُ! لا أَقْدِرُ!»

قالَ: «لَقَدْ وَصَلوا الآن إلى الشّاطِئِ وَوَجَدوا جُثَّةَ ماسْكيو، وَما هِيَ إلَّا دَقيقَةٌ أُخْرَى حَتَّى يَرَوْنا.»

ما أَغْرَبَ تَكْوينَ فِكْرِ الإِنْسانِ وَشُعورِهِ؛ فَالخَوْفُ الأَكْبَرُ يَطْغَى عَلى الخَوْفِ الأَصْغَرِ. فَبَعْدَ سَماعي كَلِماتِهِ فارَقَني الخَوْفُ مِنَ السُّقوطِ مِنْ أَعْلَى وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَبَدَأْتُ أَتَقَدَّمُ زاحِفًا عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ. وَشَجَّعَني إلْزِفِير قائِلًا: «حَسَنًا، حَسَنًا. الباقي خَمْسُونَ مِتْرًا أُخْرَى، وَمَتَى اجْتَزْتَ تِلْكَ النّاصيةَ حَمَلْتُكَ مَرَّةً أُخْرَى. وَسَنَنْجَحُ بِإذْنِ اللهِ.»

وَبَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ بَلَغْنا القِمَّةَ.

# الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

# الكَهْفُ

كانَ الوَقْتُ مُبَكِّرًا وَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ. وَرَقَدْنا عَلى الحَشائِشِ لِنَلْتَقِطَ أَنْفاسَنا وَنَسْتَريحَ بَعْدَ مُغامَرَتِنا المُرْعِبَةِ.

نَهَضَ إِلْزِفِير كَمَنْ هَبَّ مِنْ نَوْمٍ، وَقالَ: «يَجِبُ أَنْ نُواصِلَ السَّيْرَ. لا يَزالُ أَمامَ الجُنودِ وَقْتٌ قَبْلَ أَنْ يَصِلوا، لَكِنْ يَجِبُ أَلَّا يَجِدوا لَنا أَثَرًا هُنا. كَما أَنَّ ساقَكَ في حاجَةٍ إِلى عِلاجٍ، وَأَعْرِفُ كَهْفًا اسْمُهُ كَهْفُ جُوزِيف. يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَخْبَأً نُقيمُ فيهِ. هَيَّا بِنا إِلَيْهِ، فَقَدْ يَسْتَغْرِقُ الوُصولُ إِلَيْهِ طَوالَ اليَوْمِ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ نَحْوَ أَحَدَ عَشَرَ كيلو مِتْرًا. وَأَنا رَجُلٌ كَبِرَتْ سِنُّهُ، وَأَنْتَ صَبِيٌّ غَيْرُ خَفيفِ الوَزْنِ.» وابْتَسَمَ وَمَدَّ لي يَدَيْهِ ثُمَّ حَمَلَني وَبَدَأَ المَسيرَ.

مَضَى بَعْضُ الوَقْتِ، وَاشْتَدَّتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ وَزادَتْ آلامي، وَتَعِبَ إِلْزِفِير وَأَخَذَ يُبْطِئُ في السَّيْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى بَلَغْنا جِدارًا قَوِيًّا مُتَهَدِّمًا، فَوَضَعَني عَلى الأَرْضِ وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ جانِبي. وَبَعْدَ دَقائِقَ مَعْدودَةٍ كانَ يَغُطُّ في النَّوْمِ (يَنامُ نَوْمًا عَميقًا).

جَلَسْتُ مُسْنِدًا ظَهْري إِلى الجِدارِ أَتَأَمَّلُ فيما حَدَثَ. وَبَدَأَ النَّوْمُ يُداعِبُ عَيْنَيَّ أَيْضًا. وَحاوَلْتُ بِكُلِّ جَهْدي أَنْ أَبْقَى ساهِرًا لِلْحِراسَةِ كَما كَلَّفَني إِلْزِفِير، وَلَكِنَّ مُحاوَلاتي باءَتْ بِالفَشَلِ. وَنِمْتُ لِأَسْتَيْقِظَ عَلى صَوْتِ طَلْقَةٍ نارِيَّةٍ قَريبَةٍ. وَهَمَمْتُ بِإيقاظِ إِلْزِفِير، فَوَجَدْتُهُ يَقِظًا، وَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ أَلْزَمَ



الصَّمْتَ، وَمَضَى يَسْتَطْلِعُ الأَمْرَ. وَعادَ بَعْدَ قَليلٍ لِيَقولَ: «إِنَّهُ غُلامٌ يَصْطادُ الطُّيورَ. وَلَنْ نَبْرَحَ مَكانَنا إِلَّا إِذا اتَّجَهَ ناحيَتَنا.»

بَعْدَ بُرْهةٍ قالَ إِلْزِفير: «إِنَّ الغُلامَ مُقْبِلٌ نَحْوَنا. عَلَيْنا أَنْ نُظْهِرَ أَنْفُسَنا.» وَنَهَضَ فَرآهُ الغُلامُ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَجْرِيَ هَرَبًا. وَسَأَلَ إِلْزِفير الغُلامَ: «ماذا تَصْنَعُ هُنا؟»

أَجابَ الغُلامُ: «أَصْطادُ الطُّيورَ لِلْمُزارِعِ تُوب.»

فَسَأَلَهُ إِلْزِفير: «أَتَسْمَحُ لي بِبَعْضِ البارودِ أَصْطادُ بِهِ أَرْنَبًا لِعَشائِنا؟»

قالَ الغُلامُ: «آسِفٌ يا سَيِّدي فَلَيْسَ مَعي إِلَّا القَليلُ، وَأُريدُ صَيْدَ بَعْضِ الطُّيورِ وَإِلَّا نالَني العِقابُ مِنَ المُزارِعِ.»

رَدَّ إِلْزِفير: «أَعْطِني بَعْضَ ما مَعَكَ وَخُذِ الثَّمَنَ.» وَأَبْرَزَ إِلْزِفير قِطْعَةً كَبيرةً مِنَ النُّقودِ.

لَمَعَتْ عَيْنا الغُلام عِنْدَ رُؤْيةِ قِطْعةِ النُّقودِ، وَقالَ لَهُ إِلْزِفير: «سأُعْطيكَ قِطْعَتَيْنِ إِذا أَعْطَيْتَني كُلَّ ما مَعَكَ مِنَ البارودِ.»

وَسَرْعانَ ما وافَقَ الغُلامُ وَسَأَلَهُ إِلْزِفير: «هَلْ تَبيعُني البُنْدُقِيَّةَ أَيْضًا؟»

أَجابَ الغُلامُ: «لا، هذا غَيْرُ مُمْكِنٍ. فَهُناكَ شائِعَةٌ بِأَنَّ بَعْضَ المُهَرِّبينَ يَخْتَبِئونَ في هذِهِ الجِهاتِ، وَأَنَّ الجُنودَ يَجِدُّونَ في أَثَرِهِمْ.»

أَجابَهُ إِلْزِفِير: «هذا ما سَمِعْتُهُ، وَهذا هُوَ سِرُّ رَغْبَتي في شِراءِ البُنْدُقِيَّةِ، حِمايَةً لِنَفْسي. أَمَّا أَنْتَ، فَإِنَّكَ غُلامٌ صَغيرٌ لَنْ يُفَكِّرَ المُهَرِّبونَ في إِيذائِكَ، ولَسْتَ في حاجَةٍ لِبُنْدُقِيَّةٍ.»

وَأَخْرَجَ إِلْزِفِير قِطْعَةَ نُقُودٍ ذَهَبِيَّةٍ، أَسْرَعَ الصَّبِيُّ يَتَناوَلُها وَيَكِرُّ راجِعًا، بَعْدَ أَنْ أَعْطى إِلْزِفِير البُنْدُقِيَّةَ.

تَوَجَّسْتُ شَرًّا مِنْ ذلِكَ الصَّبِيِّ، وَتَبِعْتُهُ بِنَظَري حَتَّى تَوارَى عَنْ عَيْنَيَّ. وَكانَ قَدْ بَدَأَ السَّيْرَ بِخُطًى عادِيَّةٍ ثُمَّ أَخَذَ يَعْدو بِسُرْعَةٍ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيُخْبِرَ الجُنودَ عَنَّا.

قالَ إِلْزِفِير: «هَيَّا، لَقَدْ زالَتْ شِدَّةُ الحَرِّ وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوَى القَليلِ.»

حَمَلَني وَأَخَذَ يَسيرُ مُسْرِعًا بِمُحاذاةِ الجِدارِ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعْنا مَسافَةً مِنَ الطَّريقِ بَيْنَ الحُقولِ وَالمَزارِعِ وَجَدْنا نَفْسَيْنا فَوْقَ حقولٍ خَضْراءَ. ثُمَّ وَصَلْنا إِلى تَلٍّ عَلَيْهِ بَعْضُ البُيوتِ القَديمةِ المَهْجورةِ المَبْنِيَّةِ بِالصُّخورِ، وَقَدْ تَناثَرَتْ صُخورُها وَتَهَدَّمَتْ مُنْذُ سِنينَ عَديدةٍ. وَرَأَيْنا بِالتَّلِّ فَجْوَةً تَحْتَوي عَلَى بَعْضِ الدَّرَجاتِ الهابِطَةِ إِلى أَسْفَلَ.

وَضَعَني إِلْزِفِير عَلى الأَرْضِ قائِلًا: «الحَمْدُ للهِ، هذا هُوَ مَدْخَلُ كَهْفِ جُوزيف. سَنَخْتَبِئُ هُنا حَتَّى تَبْرَأَ ساقُكَ، وَلَنْ يَجِدُونا أَبَدًا. إِنَّ هذِهِ الدَّرَجاتِ تَقودُ إِلى سِرْدابٍ مَنْحوتٍ في قَلْبِ الصَّخْرِ، وَفي نِهايَتِهِ كَهْفٌ ذُو

فُتْحةٍ تُطِلُّ عَلى البَحْرِ، وَسَيَكونُ ذلِكَ الكَهْفُ مَخْبَأنا.»

اسْتَرَحْنا قَليلًا ثُمَّ حَمَلَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَأَخَذَ يَهْبِطُ السُّلَّمَ حَتَّى وَصَلْنا إلى أَسْفَلِهِ، وَكانَ الظَّلامُ يَعُمُّ المَكانَ. وَاتَّجَهَ إِلْزِفِير إلى اليَمينِ نَحْوَ فُتْحةٍ في الطَّريقِ كَمَنْ يَعْرِفُ السَّبيلَ وَيَأْلَفُهُ، وَكانَ يَتْرُكُني مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ رَيْثَما يَسْتَطْلِعُ الطَّريقَ. وَأَخيرًا وَصَلْنا إلى الكَهْفِ حَيْثُ كانَ هُناكَ ضَوْءٌ خافِتٌ يَنْبَعِثُ مِنْ فُتْحةٍ في نِهايَتِهِ. وَشَعَرْتُ بِهَواءٍ بارِدٍ نَقِيٍّ يُبَشِّرُ بِقُرْبِ البَحْرِ.

# الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ
# التَّماثُلُ لِلشِّفاءِ

وَضَعَني إِلْزِفِير فَوْقَ رِمالٍ جافَّةٍ ناعِمَةٍ. قالَ: «يَجِبُ أَنْ تَرْقُدَ هُنا لِمُدَّةِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِراشًا وَثيرًا، إِلَّا أَنَّني مُتَأَكِّدٌ أَنَّ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِنْ هذا بِكَثيرٍ.»

كانَ الصُّداعُ يَكادُ يَقْتُلُني، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِظَمَإٍ شَديدٍ، فَأَحْضَرَ إِلْزِفِير بَعْضَ الماءِ في قُبَّعَتِهِ فَشَرِبْتُ، وَبَعْدَها لَمْ أَعِ ما حَدَثَ حَوْلي. فَقَدِ اشْتَدَّتْ بي وَطْأَةُ المَرَضِ وَكُنْتُ أَهْذي وَأَثورُ حَتَّى اضْطُرَّ إِلْزِفِير أَنْ يُمْسِكَ بي وَيَمْنَعَني مِنَ النُّهوضِ. وَقَضَيْتُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ كانَ إِلْزِفِير يَقومُ خِلالَها بِتَمْريضي كَما تَفْعَلُ الأُمُّ الحَنونُ عِنْدَ مَرَضِ وَلَدِها. وَلَمْ يَتْرُكِ الكَهْفَ قَطُّ طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ إِلَّا لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّعامِ.

جَعَلَني المَرَضُ شَخْصًا هَزيلًا ضَعيفًا، وَكُنْتُ أُمَضّي الوَقْتَ مُسْتَلْقِيًا عَلى الأَرْضِ، خاليَ الذِّهْنِ، بَعيدًا عَنِ الهُمومِ، آكُلُ ما يُقَدَّمُ لي وَلا أُفَكِّرُ في شَيْءٍ.

لَمْ يَعْلَمْ بِمَكانِنا أَحَدٌ سِوَى راتْسي، فَقَدْ كانَ يَأْتينا بِالأَنْباءِ وَالطَّعامِ وَكانَ الجُنودُ مُسْتَمِرِّينَ في البَحْثِ عَنَّا في كُلِّ مَكانٍ. وَفي البِدايَةِ عِنْدَما وَجَدوا جُثَّةَ ماسْكيو، ظَنُّوا أَنَّنا سَقَطْنا في البَحْرِ، وَلكِنْ عِنْدَما رَوَى الصَّبِيُّ

حكايَةَ الرَّجُلِ وَالصَّبيِّ اللَّذَيْنِ قابَلَهُما وَباعَ أَحَدَهُما البُنْدُقِيَّةَ وَالبارودَ، وَأَنَّ رِجْلَ الصَّبيِّ كانَتْ مَكْسورَةً، أَيْقَنُوا أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ نكونَ نَحْنُ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ يَبْحَثونَ عَنْهُما. وَأَلْصَقَ الجُنودُ تُهْمَةَ قَتْلِ ماسْكيو بِالْزِفْير، وَخُصِّصَتْ مُكافَأَةٌ قَدْرُها خَمْسونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُهُ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَعِشْرونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَدُلُّ عَلَيَّ.

تَعاقَبَتِ الأَيَّامُ، وَاسْتَرْدَدْتُ عافِيَتي شَيْئًا فَشَيْئًا. وَبَدَأَ إِلْزِفْير يُفَكِّرُ في الرَّحيلِ. وَرَأَى أَنْ نَذْهَبَ إِلى نيوبُورت وَمِنْها نُبْحِرُ إِلى فَرَنْسا. وَقَرَّرْنا أَنْ نَرْكَبَ السَّفينَةَ بُوناڤِنْشَر -سَفينَةَ المُهَرِّبينَ- وَنَبْقَى حَتَّى يَهْدَأَ الحالُ أَوْ يَتَوَقَّفَ البَحْثُ عَنَّا.

وفي لَيْلَةِ رَبيعٍ عاصِفَةٍ ذَهَبَ إِلْزِفْير إِلى بَلْدَةِ بُوول حَيْثُ كانَتْ تَرْسُو السَّفينَةُ لِيُقابِلَ البَحَّارَةَ وَيَتَّفِقَ مَعَهُمْ.

وَبَيْنَما كُنْتُ جالِسًا أَمامَ الكَهْفِ في انْتِظارِهِ أَتَطَلَّعُ إِلى البَحْرِ وَأُراقِبُ الأَمْواجَ وَهِيَ تَرْتَطِمُ بِالصَّخْرِ، انْتابَتْني الهَواجِسُ وَتَخَيَّلْتُ أَنّي أَرَى رَجُلًا يَرْقُدُ عَلى الشَّاطِئِ، وَأَنَّ وَجْهَ ذلِكَ الرَّجُلِ هوَ وَجْهُ ماسْكيو يَضْحَكُ ساخِرًا مِنِّي. وَأَسْرَعْتُ إِلى داخِلِ الكَهْفِ وَأَضَأْتُ الشَّمْعَةَ ثُمَّ أَخْرَجْتُ وَرَقَةَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ أَقْرَأُ فيها بِتَوْقيعِ جُون مُوهُون:

قَدْ يَحْيا الإِنْسانُ ثَمانِينَ عامًا
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ

قُـمْ وانْـهَـلْ مِـنْ بِئْرِ المُتْعةِ وَالهَناءِ
فَـالـمَـوْتُ يَـأْتـي مِـنَ الـشَّـمـالِ أَوِ
الـجَـنوبِ، في الظَّهيرةِ أَوِ المَساءِ

سَمِعْتُ صَوْتَ خُطُواتٍ في المَمَرِّ مُقْبِلَةٍ نَحْوي، وَلَمْ تَكُنْ خُطُواتِ إلْزِقْير لِأَنَّ وَقْتَ عَوْدَتِهِ مِنْ بُوول لَمْ يَكُنْ قَدْ حانَ بَعْدُ، عِلاوةً على أَنَّنا كُنَّا مُتَّفِقَيْنِ على أُنْشُودةٍ يُرَدِّدُها عِنْدَما يَأْتي حَتَّى أَعْرِفَ أَنَّهُ القادِمُ.

تَرَكْتُ الشَّمْعَةَ وَتَناوَلْتُ البُنْدقيَّةَ، وَكانَتْ بجانِبِي. وَهَدَأَتِ العاصِفةُ، وَأَخَذَ صَوْتُ الأَقْدامِ يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا، ثُمَّ عَثَرَتْ قَدَمُ الرَّجُلِ بِحَجَرٍ فَتَمْتَمَ بكَلِماتٍ غاضِبةٍ، وَصِحْتُ: «مَنِ القادِمُ؟ أَجِبْ وَإِلَّا أَطْلَقْتُ عَلَيْكَ النَّارَ.»

أَجابَ: «أَنا راتْسي يا جُون، فَهَلْ تُطْلِقُ النَّارَ على أَعَزِّ صَديقٍ لَكَ بِالبُنْدُقيَّةِ الَّتي أَعْطاكَ إِيَّاها؟»

تَرَكْتُ البُنْدُقِيَّةَ، وَأَضَأْتُ الشَّمْعَةَ وَتَبَيَّنْتُ راتْسي واقِفًا أَمامي وَقَدْ بَلَّلَتْهُ الأَمْطارُ. وَفَرِحَ وَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ عِنْدَما رآني، وَأَمْسَكَ يَدِي قائِلًا: «جُون! لَقَدْ تَغَيَّرْتَ في شَهْرَيْنِ. كُنْتَ غُلامًا وَأَصْبَحْتَ رَجُلًا. حِينَما صَحِبْناكَ مَعَنا مُنْذُ شَهْرَيْنِ إِلى هُورْهِدْ كُنْتَ صَبيًّا ومَا كانَ يَنْبَغي أَنْ تَكونَ مَعَنا وَقْتَها، فَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ عَمَلًا لائقًا بالأَوْلادِ.»

أَجَبْتُ: «كَلَّا يا راتْسي. إِنَّ مَكاني دائِمًا بِجانِبِ إِلْزِقْير، فَحَيْثُما يَذْهَبْ

أَذْهَبْ.» وَجَلَسْتُ لِأَنَّ ساقِي آلَمَتْني.

عادَتِ الرِّياحُ إلى الهُبوبِ فَانْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ. قالَ راتْسي: «يا لَها مِنْ لَيْلَةٍ لَيْلاءَ (طَويلَةٍ شَديدَةِ السَّوادِ)!»

قُلتُ: «نَعَمْ! لِيَكُنِ اللهُ في عَوْنِ البَحَّارَةِ المَساكينِ.»

قالَ راتْسي: «غَدًا وَلا شَكَّ، سَتَكونُ هُناكَ بَعْضُ المَراكِبِ المُحَطَّمَةِ مُلْقاةً عَلى الشَّاطِئِ في مُونْفِليت. هَيَّا نُشْعِلُ نارًا.» وَجَمَعْنا بَعْضَ الأَخْشابِ وَأَوْقَدْنا النَّارَ.

قالَ راتْسي: «ما أَمْتَعَ الدِّفْءَ، لَقَدْ كِدْتُ أَموتُ بَرْدًا، وَلكِنِّي حَزينٌ فَهذا المَكانُ يَعودُ بِذاكِرَتي إلى أَرْبَعينَ عامًا مَضَتْ، عِنْدَما كُنْتُ حَديثَ العَهْدِ بِالتَّهْريبِ. فَذاتَ صَباحٍ بَيْنَما كُنْتُ أَرْقُدُ عَلى نَفْسِ البُقْعَةِ الَّتي تَجْلِسُ أَنْتَ عَلَيْها الآنَ، رَأَيْتُ سَفينَةً فَوْقَ مِياهِ البَحْرِ تَتَقاذَفُها الرِّياحُ، وَأَخَذَ مَنْ عَلَيْها مِنْ رِجالٍ وَنِساءٍ يُناضِلونَ المَوْتَ وَيُصارِعونَ الأَمْواجَ، وَنَحْنُ لا حَوْلَ لَنا وَلا قُوَّةَ؛ وَلَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ مَدِّ يَدِ المُساعَدةِ لَهُمْ. فَقَدْ حَجَبَتِ الأَمْطارُ وَالظَّلامُ عَنَّا رُؤْيَتَهُمْ. وَفي الصَّباحِ التَّالي عَلِمْنا أَنَّ السَّفينَةَ فُلوريدا قَدْ غَرِقَتْ بِمَنْ عَلَيْها مِنْ رِجالٍ وَنِساءٍ وَأَطْفالٍ.» ثُمَّ ناوَلَني راتْسي وَرَقَةً قائِلًا: «خُذْها وَأَقْرَأْ.»

قَرَأْتُ إِعلانًا عَنْ مُكافَأَتَيْنِ، إِحْداهُما بِمَبْلَغِ خَمْسينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُ أَوْ يُرْشِدُ إلى مَكان إِلْزِفير، وَالأُخْرَى بِمَبْلَغِ عِشْرينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُ أَوْ يُرْشِدُ إلى مَكاني.

قالَ رانْسي: «لا أَحَدَ في مُونْفِليت يَعْرِفُ أَيْنَ أَنْتُما غَيْري، وَلَوْ عَرَفوا فَلَنْ يُفْشُوا السِّرَّ أَبَدًا، وَالجُنودُ يُراقِبونَني أَيْنَما ذَهَبْتُ، لِذا يَجِبُ أَلَّا أَحْضُرَ هُنا ثانِيَةً.»

أَخْبَرْتُهُ عَنْ عَزْمِنا بِالرَّحيلِ إلى فَرَنْسا، فَابْتَهَجَ وَصَمَتَ لَحْظَةً، ثُمَّ قالَ: «إِنَّ قَلْبِي حَزينٌ هذا المَساءَ. حَزينٌ عَلى الأَيَّامِ الطَّيِّبَةِ الَّتي وَلَّتْ وَلَنْ تَعودَ،



وَلَنْ يَعودَ إِلْزِقِير إلى مُونْفِليت؛ والفُنْدُقُ مُوصَدٌ مُنْذُ مَصْرَع ماسْكيو، وَجريس تَبْدو كَالشَّبَحِ الهائِمِ، بَعْدَ ما أَخْبَرَها الرِّجالُ بِأَنَّكَ وَإِلْزِقِير قَتَلْتُما أَباها، وَلكِنَّها لَمْ تُصَدِّقْهُمْ وَقالَتْ: «مُسْتَحيلٌ! إِنَّ إِلْزِقِير لا يُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا أَعْزَلَ مِنَ السِّلاحِ مُوثَقَ اليَدَيْنِ وَالقَدَمَيْنِ؛ وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَحَ جُون بِذلِكَ.»

كانَ صَوْتُ راتْسي أَحْلَى مِنَ المُوسِيقى في أُذُني. فَقَدْ أَثْلَجَ صَدْري وَبَعَثَ الفَرَحَ في نَفْسي، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ لِجرِيس وَأُوَدِّعَها قَبْلَ سَفَري، وأُخْبِرَها بِكُلِّ شَيْءٍ.

نَظَرَ راتْسي إِلَيَّ مَلِيًّا ثُمَّ قالَ: «نَعَمْ، إِنَّها جَميلَةٌ وَإِنْ كانَتْ شاحِبَةَ اللَّوْنِ نَحيلَةً، وَلَوْ كُنْتُما رَجُلًا وَامْرَأَةً، لَكانَتْ لَكَ نِعْمَ الزَّوْجَةُ إِذا رَضِيَتْ بِكَ زَوْجًا.» وَوَضَعَ بَعْضَ الأَخْشابِ فَوْقَ النَّارِ فَاشْتَعَلَتْ وَعَلَى ضَوْئِها رَأَيْتُ قِطْعَةً مِنَ الوَرَقِ مُلْقاةً عَلى الأَرْضِ قريبًا مِنْ قَدَمِ راتْسي. إِنَّها وَرَقَةُ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ الَّتي كُنْتُ أَقْرَؤُها عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ أَقْدامٍ في السِّرْدابِ.

الْتَقَطَ راتْسي الوَرَقَةَ وَقَرَأَها، ثُمَّ قالَ: «ما أَرْدَأَ هذِهِ الكِتابَةَ، وَما أَجْهَلَ مَنْ كَتَبَها. لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ الكَلِماتِ دُونَ مُبَرِّرٍ.» أَعْطاني الوَرَقَةَ، وَنَهَضَ قائِلًا: «لا أَسْتَطيعُ انْتِظارَ إِلْزِقِير حَتَّى يَعودَ. يَجِبُ أَنْ تُخْبِرَهُ بِضَرورَةِ رَحيلِكُما بِسُرْعَةٍ.» وَصافَحَني وَانْصَرَفَ.

أَخَذْتُ الوَرَقَةَ، وَعُدْتُ أَتَأَمَّلُها، وَكَلِماتُهُ تَرِنُّ في أُذُنَيَّ: «لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ الكَلِماتِ دُونَ مُبَرِّرٍ:

«ثَمانينَ قَدَمًا مِنْ بِئْرِ الشَّمالِ»

وَفَجْأَةً وَضَحَ أَمامي اللُّغْزُ، وَعَجِبْتُ مِنْ نَفْسي كَيْفَ لَمْ أَهْتَدِ لِلْحَلِّ مِنْ قَبْلُ. إِنَّ الماسةَ مُخَبَّأَةٌ في بِئْرٍ عَلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا، أَوْ أَنَّ البِئْرَ تَبْعُدُ ثَمانينَ قَدَمًا إِلى الشَّمالِ. وَلَكِنْ أَيُّ شَمالٍ هذا؟ وبَيْنَما أَنا أُفَكِّرُ غَلَبَني النُّعاسُ فَنِمْتُ.

اسْتَيْقَظْتُ فَوَجَدْتُ النّارَ ما زالَتْ مُشْتَعِلَةً وَالْزِفير يَجْلِسُ بِجانِبِها مُنْهَمِكًا في طَهْوِ الطَّعامِ. قالَ: «أَنْتَ لا تَصْلُحُ لِلْحِراسَةِ يا جُون. فَهذِهِ هِيَ المَرَّةُ الثّانِيَةُ الَّتي أَجِدُكَ فِيها نائِمًا عِنْدَما يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْقى مُسْتَيْقِظًا.»

كانَ فِكْري ما زالَ مَشْغولًا بِالوَرَقَةِ وَبِما تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ حَلٍّ، وَلَمّا حَدَّثْتُهُ عَنْها قالَ: «بارَكَ اللهُ فِيكَ يا بُنَيَّ! أَظُنُّكَ حَقًّا قَدِ اهْتَدَيْتَ إِلى حَلِّ هذا اللُّغْزِ. وَلكِنْ أَيْنَ هذِهِ البِئْرُ؟ إِنَّهُ لَيْسَ في مُونْفِليت بِئْرٌ بِهذا العُمْقِ، فَرُبَّما تكونُ في غَيْرِ مونْفِليت. وَرُبَّما تكونُ في قَلْعَةِ كاريسْبْرُوك، حَيْثُ كانَ المَلِكُ سَجينًا في حِراسَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ. وَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ وُجودِ بِئْرٍ هُناكَ، داخِلَ القَلْعَةِ. هَيّا نَذْهَبُ إِلَيْها، وَلي في القَرْيَةِ بَعْضُ الأَصْدِقاءِ نَسْتَطيعُ أَنْ نَخْتَبِئَ في مَنازِلِهِمْ. كَما أَنّنا سَنكونُ في مَأْمَنٍ أَكْثَرَ مِمّا نَحْنُ عَلَيْهِ الآنَ.»

هكَذا تَقَرَّرَ الرَّحيلُ إِلى كارِيْسبْرُوك بَدَلًا مِنْ فَرَنْسا. وَفي اليَوْمِ التّالي أَحْضَرَ الْزِفير سائِلًا بُنِّيًّا صَبَغَ بِهِ وَجْهي، ثُمَّ حَلَقَ لِحْيَتَهُ وَارْتَدَيْنا المَلابِسَ الجَديدةَ الَّتي أَحْضَرَها، وَكانَتْ تُناسِبُ مُزارِعًا وَغُلامَهُ. وَنَظَرَ كُلٌّ مِنّا إِلى الآخَرِ، وَتَأَكَّدْنا مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَعْرِفَنا أَحَدٌ، ثُمَّ رُحْتُ أَمْشي جَيْئَةً وَذَهابًا لِتَقْوِيَةِ ساقِي.

# الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ
# حَتَّى عَوْدَتِكَ

لَمْ يَبْقَ سِوَى لَيْلَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ نُغادِرَ مَخْبَأَنا. وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِالأَسَى، وَتَمَلَّكَتْني رَغْبَةٌ شَديدَةٌ في أَنْ أَرَى جِريس قَبْلَ رَحيلي. وَلكِنِّي خَجِلْتُ مِنْ إِبْداءِ تِلْكَ الرَّغْبَةِ أَمامَ إِلْزِفير. وَبَيْنَما كُنَّا جالِسَيْنِ عَلى صَخْرَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الكَهْفِ نُراقِبُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ الغارِبَةِ، رَأَيْتُ الفُرْصَةَ سانِحَةً فَقُلْتُ: «عَزيزي إِلْزِفير. لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي، وَقُمْتَ بِرِعايَتي طَوالَ هٰذِهِ المُدَّةِ. وَلكِنْ ما زالَ لي طَلَبٌ واحِدٌ أَرْجُوهُ مِنْكَ. آمُلُ أَنْ تَدَعَني أَخْرُجُ مِنَ الكَهْفِ وَأَسيرُ عَلى الحَشائِشِ. لَقَدْ مَضَى عَلَيَّ شَهْرانِ لَمْ أَرَ فيهِما سِوَى هٰذِهِ الجُدْرانِ الحَجَرِيَّةِ، وَقَدْ تاقَتْ نَفْسي لِرُؤْيَةِ العالَمِ الخارِجِيِّ.»

قالَ إِلْزِفير: «صَهٍ يا وَلَدي! لا تَقُلْ إِنِّي أَنْقَذْتُ حَياتَكَ. فَأَنا الَّذي عَرَّضْتُكَ لِلْمَخاطِرِ، وَلَوْلايَ لَكُنْتَ الآنَ تَرْقُدُ فَوْقَ فِراشِكَ في مُونْفِليت هادِئَ البالِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَوارَى بَيْنَ هٰذِهِ الصُّخورِ. وَسَوْفَ أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ إِلى أَحَدِ البُيوتِ القَديمَةِ القَريبَةِ مِنْ هُنا، لِآخُذَ شَيْئًا تَرَكَهُ لي راتْسي هُناكَ. وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَصْحَبَني وَتَسْتَمْتِعَ بِنَسيمِ المَساءِ.»

قُلْتُ: «لا يا إِلْزِفير. هٰذا لا يَكْفيني! دَعْني أَذْهَبُ أَبْعَدَ مِنْ هٰذا. أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي وُلِدْتُ في مُونْفِليت وَعِشْتُ فيها طَوالَ حَياتي، وَشَبَبْتُ عَلى حُبِّها. فَأَنا أُحِبُّ كُلَّ شَجَرَةٍ فيها، وَكُلَّ حَصاةٍ عَلى أَرْضِها، وَكُلَّ قَطْرَةِ ماءٍ في غَديرِها. وَأَوَدُّ أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةَ وَداعٍ أَخيرَةً عَلى كُلِّ هٰذا. دَعْني أَذْهَبُ إِلى

مُونْفِليت، وَكُنْ مُطْمَئِنًا. فَلَنْ يَعْرِفَني أَحَدٌ في زِيِّي هذا، وَسَأَعودُ إِلَيْكَ مَساءَ الغَدِ.»

تَأَمَّلَني إِلْزِفير لَحْظَةً وَهوَ صامِتٌ، وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ ما في سَريرَتي، ثُمَّ قالَ: «جُون، لَقَدْ سَمِعْتُ كَثيرًا عَنْ رِجالٍ خاطَروا بِحَياتِهِمْ مِنْ أَجْلِ المالِ أَوْ مِنْ أَجْلِ الحُبِّ أَوِ البُغْضِ، وَلكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ عَنْ شَخْصٍ أَلْقَى بِنَفْسِهِ في المَخاطِرِ لِيَحْظَى بِرُؤْيَةِ شَجَرَةٍ أَوْ حَصاةٍ أَوْ غَديرٍ. عِنْدما يُولَعُ المَرْءُ بِحُبِّ مَكانٍ أَوْ مَدينَةٍ ما، فَهوَ بِكُلِّ تَأْكيدٍ يُحِبُّ شَخْصًا في ذلِكَ المَكانِ أَوْ في تِلْكَ المَدينَةِ. قُلْ لي، أَتُريدُ أَنْ تَوَدِّعَ الآنِسَةَ أَرْنُولد خالَتَكَ؟»

أَجَبْتُهُ بِالنَّفْيِ، ثُمَّ أَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ سِرِّي. قالَ: «يا لَلْحَماقَةِ! وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ لا أَنْسَى أَنِّي كُنْتُ يَوْمًا ما في مِثْلِ سِنِّكَ، وَإِنِّي أَعْرِفُ فَتاتَكَ، وَكَثيرًا ما تَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَنْجَبَ رَجُلٌ مِثْلُ ماسْكيو، ابْنَةً مِثْلَ جِريس! وَالآنَ أَحْمَدُ اللهَ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ بِيَدي! اِذْهَبْ إِلى أَشْجارِكَ وَحَصاكَ وَغَديرِكَ، وَسَأَذْهَبُ مَعَكَ بَعْضَ الطَّريقِ، ثُمَّ أَعودُ وَأَنْتَظِرُكَ. فَإِنْ لَمْ تَعُدْ هُنا عِنْدَ مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ الغَدِ، فَسَأَعْرِفُ أَنَّهُ قُبِضَ عَلَيْكَ، وَسَأُحاوِلُ مُساعَدَتَكَ.»

صافَحْتُهُ، وَشَكَرْتُهُ بِحَرارَةٍ.

أَخَذْنا مَعَنا بَعْضَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَبَدَأْنا رِحْلَتَنا. وَكانَ السِّرْدابُ مُظْلِمًا فَقادَني إِلْزِفير مِنْ يَدي، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ لاحَتِ السَّماءُ الزَّرْقاءُ فَوْقَ رَأْسي. وَكانَ بِها نَجْمٌ لامِعٌ يُطِلُّ عَلَيْنا. وَشَعَرَ كِلانا بِجَمالِ الطَّبيعَةِ وَرَهْبَةِ اللَّيْلِ، لِذا مَشَيْنا في صَمْتٍ. ثُمَّ تَوَقَّفْنا في سَيْرِنا عِنْدَ أَحَدِ البُيوتِ القَديمَةِ الَّتي قالَ إِلْزِفير إِنَّ راتْسي تَرَكَ لَهُ فيهِ شَيْئًا. وَأَنْجَزَ إِلْزِفير حاجَتَهُ، ثُمَّ سِرْنا حَتَّى

وَصَلْنا بيربك، وَهُناكَ أَعْطاني المُسَدَّسَ الَّذي كانَ يَمْلِكُهُ ماسْكيو.

قالَ: «إِلَيْكَ هذا يا جُون وَلكِنْ إِيَّاكَ، إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَهُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرورةِ القُصْوَى، وَإِذا اسْتَعْمَلْتَهُ فَصَوِّبْهُ إِلى نُقْطَةٍ مُنْخَفِضةٍ.»

أَسْرَعْتُ الخُطَى وَوَصَلْتُ المُرْتَفَعَ الَّذي يُطِلُّ عَلى مونْفِليت في نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي بَزَغَتْ فِيها الشَّمْسُ، وَمِنْ هُناكَ رَأَيْتُ الغابَةَ وَالمَنْزِلَ العَتيقَ والقَرْيَةَ بِأَجْمَعِها. وَظَهَرَ الفُنْدُقُ وَنَهْرُ فِليت والبَحْرُ مِنْ عَلى بُعْدٍ. وَتَمَلَّكَني شُعورٌ غَريبٌ، هُوَ مَزيجٌ مِنَ الفَرَحِ وَالأَسَى وَالحَنينِ، عِنْدَما رَأَيْتُ مونْفِليت مَرَّةً ثانِيةً. وَبَدَأَتْ حَرارةُ الشَّمْسِ في الارْتِفاعِ فَاتَّخَذْتُ طَريقي في الغابَةِ، وَاخْتَفَيْتُ في مَكانِيَ القَديمِ المُفَضَّلِ لِأُراقِبَ مَنْزِلَ ماسْكيو.

وَقَفْتُ في حَيْرةٍ، لا أَجْرُؤُ على طَرْقِ البابِ فَرُبَّما يَتَعَرَّفُ الخَدَمُ عَلَيَّ. وَبَيْنَما كُنْتُ آكُلُ قِطْعَةَ خُبْزٍ فَكَّرْتُ في كُلِّ شَيْءٍ. وَفي السَّاعةِ العاشِرَةِ نَهَضْتُ مِنْ مَكاني، وَسَلَكْتُ الطَّريقَ إِلى المَنْزِلِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّني كُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَعْرِفَني في هذِهِ المَلابِسِ فَقَدْ كُنْتُ خائِفًا. وَوَقَفْتُ بِالبابِ، وَقَرَعْتُ الجَرَسَ وَانْتَظَرْتُ بُرْهةً. وَلَمَّا هَمَمْتُ أَنْ أَقْرَعَ البابَ ثانِيةً، سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ مُقْبِلةٍ وَصَوْتًا يَسْأَلُ: «مَنْ بِالبابِ؟»

أَدْرَكْتُ أَنَّهُ صَوْتُ جرِيس، وَكِدْتُ أُنادِيها بِاسْمِها، وَلكِنِّي أَحْجَمْتُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكونَ هُناكَ شَخْصٌ آخَرُ مَوْجودًا مَعَها، فَأَجَبْتُ: «أَنا غُلامٌ مِسْكينٌ ضَلَّ طَريقَهُ.»

فَتَحَتْ جرِيس البابَ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ كَمَنْ يَنْظُرُ لِغَريبٍ وَسَأَلَتني: «إِلى أَيْنَ كُنْتَ ذاهِبًا؟»

أَجَبْتُ: «أَنا صَبِيٌّ يَعْمَلُ في مَزْرَعةٍ، وَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ بيربك سائِرًا عَلى قَدَمَيَّ أَبْحَثُ عَنْ فُنْدُقٍ يُسَمَّى فُنْدُقَ «وايْنَط» يُديرُهُ شَخْصٌ يُسَمَّى إِلْزِڤِير بلُوك. فَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِها عَلاماتُ الدَّهْشةِ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ مُدَقِّقةً النَّظَرَ مُسْتَطْلِعةً، ثُمَّ قالَتْ: «يُمْكِنُكَ أَنْ تَرى الفُنْدُقَ مِنْ هُنا إذا صَعِدْتَ هذِهِ الدَّرَجاتِ القَليلةَ. وَلَكِنَّ الفُنْدُقَ أُغْلِقَتْ أَبْوابُهُ مُنْذُ شَهْرَيْنِ، وَقَدْ رَحَلَ إِلْزِڤِير.»

اسْتَدارَتْ نَحْوَ السُّلَّمِ وَتَبِعْتُها. وَحِينَ ابْتَعَدْنا قَليلًا عَنِ البابِ قُلْتُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «جرِيس! أَنا جُون ترِنْشارد، أَتَيْتُ لِأَراكِ قَبْلَ أَنْ أَرْحَلَ عَنْ مونْفِليت. هَلْ مَعَكِ في البَيْتِ أَحَدٌ؟»

لَوْ كانَتْ فَتاةً أُخْرَى غَيْرَ جرِيس، لَصَرَخَتْ مِنَ الدَّهْشةِ. أَمَّا هيَ فَقالَتْ بِكُلِّ هُدوءٍ: «لا يا جُون، أَنا وَحْدي. هَيَّا بِنا لِلْمَنْزِلِ.»

وَصَلْنا إِلى المَنْزِلِ وَأَوْصَدْنا البابَ خَلْفَنا، وتَماسَكَتْ أَيْدِينا، وَتَشابَكَتْ نَظَراتُنا. وَمَرَّتْ لَحَظاتٌ حُلْوَةٌ تَناجَتْ فِيها رُوحانا.

قالَتْ: «لَقَدْ غَيَّرَتْكَ الأَيَّامُ الماضيةُ كَثيرًا وَأَصْبَحْتَ رَجُلًا.» وَكانَتْ هيَ الأُخْرَى قَدْ كَبِرَتْ وَصارَتِ امْرَأَةً ناضِجةً، تُماثِلُني في ارْتِفاعِ القامةِ؛ بَيْدَ أَنَّ المَآسِيَ الَّتي عانَتْها كَسَتْ وَجْهَها بِمِسْحةٍ مِنَ الحُزْنِ، وَسَلَبَتْ جَسَدَها بَعْضَ الوَزْنِ.

نَظَرَتْ إِلَيَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْها، ثُمَّ أَخَذَتْني إِلى الحَديقةِ حَيْثُ جَلَسْنا مُتَوارِيَيْنِ مِنْ خَلْفِ شَجَرَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ، وَأَخْبَرَتْني بِطَريقةِ الهَرَبِ إذا داهَمَنا خَطَرٌ.



حَدَّثْتُ جريس بِكُلِّ ما جَرى، فَبَكَتْ عِنْدَ ذِكْرِ مَصْرَعِ أَبيها، ثُمَّ مَسَحَتْ دُموعَها، وتَفَحَّصَتْ ساقِيَ وَاطْمَأَنَّتْ عَلى شِفائِي وَحَدَّثْتُها عَنْ عُثوري عَلى العُلْبَةِ الصَّغيرةِ وَعَنْ وَرَقَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ، وَعَنْ قَرارِي بِالبَحْثِ عَنِ الماسَةِ حَتّى أَجِدَها لِأُصْبِحَ مِنْ أَثْرى رِجالِ العالَمِ كُلِّهِ.

قالَتْ: «أَوَّاهُ يا جُون! لا تُفَكِّرْ كَثيرًا في تِلْكَ الماسةِ. لَقَدْ كانَتْ في حَوْزَةِ رَجُلٍ شرِّيرٍ، وَلَنْ تكونَ سَبَبًا في إِسْعادِكَ. فَإِذا وَجَدْتَها، اسْتَخْدِمْها لِمُساعَدَةِ الفُقَراءِ وَالمَساكينِ، وَإِلّا جَرَّتْ عَلَيْكَ البُؤْسَ أَيْضًا.»

ضَحِكْتُ مِنْ قَوْلِها، فَهِيَ لا تُدْرِكُ أَنَّ سَعْيِي لِامْتِلاكِ الماسةِ كانَ مِنْ أَجْلِ أَنْ أُصْبِحَ ثَرِيًّا لائِقًا بِالزَّواجِ بِها.

جاءَتْني بِبَعْضِ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ، وَبَعْدَ تَناوُلِ الطَّعامِ تَرَكَتْني لِأَسْتَريحَ وَأَنامَ فَقَدْ أَخْبَرْتُها بِأَنّي قَضَيْتُ اللَّيْلَةَ السّابِقَةَ ماشِيًا لِلْوُصولِ إِلَيْها. وَلَمّا اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُ جريس جالِسةً بِجانِبي، وَكانَ الجَوُّ أَكْثَرَ بُرودةً وَالظِّلالُ قَدْ غَطَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَحانَتْ ساعةُ الفِراقِ.

أَعْطَتْني خُبْزًا وَلَحْمًا وَلَبَنًا وَقالَتْ: «يا جُون، سَتَجوبُ البِحارَ وَرُبَّما تَعودُ إِلى مُونْفِليت، وَمَهْما انْقَطَعْتَ عَنْها فَسَأَظَلُّ أَضَعُ شَمْعَتي المُضاءَةَ في النّافِذَةِ، كَما وَعَدْتُكَ مِنْ قَبْلُ. فَإِذا أَتَيْتَ إِلى هٰذِهِ الشَّواطِئِ وَرَأَيْتَها فاعْلَمْ أَنّي عَلى قَيْدِ الحَياةِ في انْتِظارِكَ، وَإِنْ لَمْ تَرَها فَاعْلَمْ أَنّي فارَقْتُ الحَياةَ. سَأَظَلُّ أُفَكِّرُ فيكَ حَتّى عَوْدَتِكَ.»

# الفَصْلُ السَّادِسَ عشَرَ

# في القَلْعةِ

عُدْتُ إلى الكَهْفِ في ساعَةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَكانَتِ اللَّيْلةُ التَّالِيةُ هِيَ ميعادَ وُصُولِ السَّفينةِ بُوناڤِنْشَر. وَعِنْدَما وَصَلَتْ، أَرْسَلَتْ لَنا قارِبًا يَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ. وَشَعَرْتُ وَقْتَها بِأَلَمِ الفِراقِ لِتَرْكِ شَواطِئِ دُورْسِت العَزيزةِ وَالكَهْفِ الَّذي آواني شَهْرَيْنِ.

وَصَلْنا في اليَوْمِ التَّالي إلى كاوز وَمِنْها سِرْنا إلى كاريسْبُروك، وَنَزَلْنا في فُنْدُقٍ بَجِل حَيْثُ تَناوَلْنا طَعامَنا، ثُمَّ نِمْنا. وَكَمْ نَعِمْتُ بِالنَّوْمِ في فِراشٍ مُريحٍ بَعْدَ مُعاناتي مِنَ النَّوْمِ فَوْقَ الرِّمالِ.

كانَ إلْزِڤير يَقْضي مُعْظَمَ اليَوْمِ في الخارِجِ، أَمَّا أَنا فَاعْتَكَفْتُ في غُرْفَةٍ خَلْفِيَّةٍ في الفُنْدُقِ أَتَصَفَّحُ ما كانَ بِها مِنْ كُتُبٍ.

ذَهَبَ إلْزِڤير عِدَّةَ مَرَّاتٍ إلى القَلْعةِ، وَعَرَفَ أَنَّها كانَتْ تُسْتَعْمَلُ لِسَجْنِ أَسْرَى الحَرْبِ الفَرَنْسِيِّينَ. وَنَشَأَتْ صَداقةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدِ الحُرَّاسِ، فَدَخَلَ بِمُساعَدَتِهِ القَلْعةَ وَتَأَكَّدَ مِنْ وُجودِ البِئْرِ بِها.

وَذاتَ مَساءٍ كُنْتُ جالِسًا في حَديقةِ الفُنْدُقِ الخَلْفِيَّةِ، وَجاءَ إلْزِڤير وَقالَ: «لَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجِدَ وَسيلةً نَصِلُ بِها إلى البِئْرِ دُونَ عِلْمِ أَحَدٍ، فَلَمْ أُوَفَّقْ.

وَهُناكَ حارِسٌ اضْطُرِرْتُ أَنْ أُطْلِعَهُ على قَصْدِنا، رَغْمَ أَنِّي لا أَثِقُ بِهِ، وَوَعَدَ بِأَنْ يَسْمَحَ لَنا بِنُزولِ البِئْرِ، عَلى أَنْ نُعْطِيَهُ ثُلُثَ مِقْدارِ ما سَوْفَ نَجِدُهُ. وَغَدًا في السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَباحًا سَيَفْتَحُ لَنا بَوَّابَةَ القَلْعَةِ، وَسَنَدْخُلُها مُتَنَكِّرَيْنِ في زِيِّ عامِلَيْنِ حَضَرا لِتَرْميمِ جِدارِ البِئْرِ مِنْ داخِلِها.»

في الصَّباحِ التَّالي تَوَجَّهْنا إِلى القَلْعَةِ وَنَحْنُ نَرْتَدي مَلابِسَ عامِلَيْنِ. وَكانَ المَطَرُ يَهْطِلُ، فَوَجَدْنا الحارِسَ في انْتِظارِنا، وَفَتَحَ البَوَّابَةَ حالَ وُصولِنا قائِلًا: «صَباحَ الخَيْرِ. اُدْخُلا لِتَشْرَبا شَيْئًا قَبْلَ البَدْءِ في العَمَلِ.»

شَكَرْناهُ مُعْتَذِرَيْنِ عَنِ الشَّرابِ وَأَبْدَيْنا رَغْبَتَنا في العَمَلِ فَوْرًا.

سارَ الرَّجُلُ وَنَحْنَ نَتْبَعُهُ حَتَّى عَبَرْنا فِناءً فَتَحَ في آخِرِهِ بابًا بِمِفْتاحٍ كانَ يَحْمِلُهُ. وَدَخَلْنا فِناءً أَصْغَرَ أُقيمَ في وَسَطِهِ مَبْنًى خَشَبِيٌّ مُرَبَّعٌ، ثُمَّ فَتَحَ الرَّجُلُ بابَ هذا المَبْنَى بِمِفْتاحٍ صَغيرٍ وَبَعْدَ أَنْ دَخَلْناهُ أَغْلَقَ البابَ.

لَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسي إِلى ذلِكَ الرَّجُلِ. وَقَدْ قيلَ إِنَّ الجَوْهَرَةَ تَجْلِبُ الشَّقاءَ عَلى كُلِّ مَنْ يَمْتَلِكُها، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ هذا الرَّجُلَ سَيَجُرُّ عَلَيْنا المَتاعِبَ بَعْدَ أَنْ نَجِدَها.

كانَ في وَسَطِ البِئْرِ دَلْوٌ كَبيرَةٌ مُعَلَّقَةٌ، مَدَّ إِلْزِفير يَدَهُ إِلَيْها وَسَحَبَها جانِبًا وَقالَ وَهوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ: «سَأَجْلِسُ في هذِهِ الدَّلْوِ وَسَيُنْزِلُني هذا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ داخِلَ البِئْرِ بِرِفْقٍ. وَسَوْفَ أُمْسِكُ بِهذا الحَبْلِ وَطولُهُ ثَمانونَ قَدَمًا بِالضَّبْطِ،

وَعِنْدَما أَصِلُ إلى نِهايَةِ الحَبْلِ في البِئْرِ، سَأُنادي عَلَيْكُما كَيْ تَتَوَقَّفا عَنِ الاسْتِمْرارِ في إنْزالي.»

لَمْ تُعْجِبْني تِلْكَ الخُطَّةُ، وَشَعَرْتُ بِعَدَمِ الارْتياحِ لِوُجودي وَحْدي مَعَ ذلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْتُ: «لا، لا. دَعْني أَنا أَهْبِطُ بِالدَّلْوِ فَأَنا أَصْغَرُ مِنْكَ حَجْمًا وَأَخَفُّ وَزْنًا، وَتَبْقى أَنْتَ هُنا مَعَ هذا السَّيِّدِ وَتُعاوِنُهُ.»

وافَقَ إلْزِفير، وَلكِنَّ الرَّجُلَ قالَ بِحِدَّةٍ وَغَضَبٍ: «الخُطَّةُ الأولَى أَنْسَبُ بِكَثيرٍ.»

نَظَرْتُ إلى إلْزِفير مُحاوِلًا أَنْ أَنْقُلَ إلَيْهِ بِنَظَراتي ما كانَ يَدورُ بِخاطِري، فَفَهِمَ إلْزِفير قَصْدي وَوافَقَ عَلى خُطَّتي وَلَمْ يَأْبَهْ بِرَأْيِ الرَّجُلِ.

سَأَلْتُ إلْزِفير: «هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ الهَواءَ في البِئْرِ غَيْرُ فاسِدٍ؟»

أَجابَ: «نَعَمْ. فَقَدْ أَنْزَلْتُ شَمْعَةً مُشْتَعِلَةً في البِئْرِ أَمْسِ، فَظَلَّتْ تَحْتَرِقُ بِلَهَبٍ وَضّاءٍ حَتَّى وَصَلَتْ إلى القاعِ، وَما دامَتِ الشَّمْعَةُ تَحْتَرِقُ فَلا بُدَّ أَنْ يَكونَ الهَواءُ صالِحًا. إلَيْنا بِشَمْعَةٍ أَيُّها السَّيِّدُ.»

أَحْضَرَ الرَّجُلُ شَمْعَةً وَثَبَّتَها عَلى قِطْعَةِ خَشَبٍ وَأَنزلَها في البِئْرِ بَعْدَ أَنْ أَضاءَها، فَظَلَّ نورُها يَصْغُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى أَصْبَحَ قَبَسًا ضَعيفًا يَنْبَعِثُ مِنْ نُقْطَةٍ. وَأَخيرًا رَأَيْتُ الضَّوْءَ يَنْعَكِسُ عَلى الأَمْواجِ الصَّغيرَةِ الَّتي تَعْلو سَطْحَ الماءِ. عِنْدَما وَصَلَتِ الشَّمْعَةُ إلى القاعِ، سَحَبَ الرَّجُلُ الشَّمْعَةَ ثُمَّ قَذَفَ

حَجَرًا في البِئْرِ. وَفي مُنْتَصَفِ المَسافةِ اصْطَدَمَ الحَجَرُ بِجِدارِ البِئْرِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ مِنْ جانِبٍ إلى جانِبٍ مُحْدِثًا صَوْتًا عَميقًا كَصَوْتِ أَمْواجِ البَحْرِ المُتَكَسِّرةِ عَلى الشَّاطِئِ.

صَوَّبَ إِلَيَّ الرَّجُلُ نَظْرَةً وَكَأَنَّهُ يَقولُ: «هكَذا سَيكونُ صَوْتُ سُقوطِكَ.»

وَسَأَلَني إِلْزِفير: «أَواثِقٌ أَنْتَ بِأَنَّكَ قادِرٌ عَلى أَنْ تَقومَ بِهذِهِ المُهِمَّةِ؟ إِنِّي أُفَضِّلُ أَنْ تَضيعَ جَواهِرُ العالَمِ بِأَسْرِهِ، عَلى أَنْ تَضيعَ أَنْتَ!»

قُلْتُ: «لا تَخَفْ.»

## الفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

## في البِئْرِ

كانَتِ الدَّلْوُ كَبيرةً، وَكانَ نُزولي بِها بِبُطْءٍ مُريحًا وَرُحْتُ أَتَفَحَّصُ جُدْرانَ البِئْرِ أَثْناءَ نُزولي مِنْ غَيْرِ أَنْ أَتْرُكَ الحَبْلَ. وَبَدَأَ الضَّوْءُ يَقِلُّ تَدْريجِيًّا حَتّى أَصْبَحَتْ فُوَّهَةُ البِئْرِ فَوْقي تَبْدو بَيْضاءَ مُسْتَديرةً كَالقَمَرِ. وَعِنْدَ نِهايَةِ الحَبْلِ – وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا– نادَيْتُ عَلَيْهِما كَيْ يَتَوَقَّفا. وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا، فَقَدْ بُنِيَتْ جُدْرانُ البِئْرِ بِمُكَعَّباتٍ صَغيرةٍ مِنَ الحَجَرِ، وَبَدَتْ كُلُّها مُتَشابِهةً.

نَفِدَ صَبْرُ الرَّجُلِ وَصَرَخَ فِيَّ: «ماذا تَفْعَلُ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا؟ هَلْ وَجَدْتَ المَكانَ؟»

قُلْتُ: «لا، لا أَرَى شَيْئًا هُنا.» وَسَأَلْتُ إِلْزِفِير: «هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ أَنَّ طُولَ الحَبْلِ يَبْلُغُ ثَمانينَ قَدَمًا؟»

وَسَمِعْتُهُما يَتَجادَلانِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَتَبَيَّنْ حَديثَهُما. ثُمَّ قالَ إِلْزِفِير بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «يَقولونَ إِنَّهُمْ قامُوا بِتَعْلِيَةِ الأَرْضِ هُنا، فَاهْبِطْ وَابْحَثْ عِنْدَ مُسْتَوًى أَعْمَقَ.»

وَبَدَأَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي ثانِيةً، وَسَمِعْتُ أَصْواتًا تَنْبَعِثُ مِنْ قاعِ البِئْرِ، كَما

لَوْ كانَ المَوْتَى يَقومونَ بِحِراسةِ الجَوْهَرةِ وَقَدْ أَقْلَقَهُمْ وُجودي.

وَبَيْنَما كانَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي لَمَحْتُ حَجَرًا نُقِشَتْ عَلَيْهِ عَلامةُ (Y)، فَأَيْقَنْتُ أَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إلى غايَتي.

وَمَدَدْتُ يَدي، وَلكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْمِسَ الحَجَرَ لِبُعْدي عَنْهُ، فَطَلَبْتُ سَحْبَ الدَّلْو إلى الجِهَةِ المُقابِلةِ، وَبَدَأْتُ في إزالَةِ الحَجَرِ. وَكانَ الرَّجُلُ يَصْرُخُ مِنْ أَعْلَى قائِلًا: «ماذا تَفْعَلُ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا؟» وَأَثارَ إلْحاحُهُ في السُّؤالِ غَضَبي، وَتَعَجَّبْتُ لِسُكوتِ إلْزِفِير. ثُمَّ أَزَلْتُ الحَجَرَ وَوَضَعْتُ يَدي في الثَّقْبِ الَّذي تَرَكَهُ الحَجَرُ، فَعَثَرْتُ عَلى كِيسٍ صَغيرٍ تَحَسَّسْتُهُ فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مُسْتَديرٍ صُلْبٍ بِداخِلِهِ. وَعِنْدَما فَتَحْتُهُ وَجَدْتُ في يَدي الماسةَ المَنْشودةَ.

لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ ماسةً كَبيرةً أَوْ صَغيرةً. وَلكِنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ ما بِيَدي لا بُدَّ أَنْ يَكونَ أَثْمَنَ ماساتِ العالَمِ كُلِّهِ وَأَجْمَلَها.

وَعِنْدَما كانَ نُورُ الشَّمْعةِ يَنْعَكِسُ عَلى سَطْحِ الماسةِ كانَتْ تَسْطَعُ مِنْها أَشِعَّةٌ مُلَوَّنةٌ مُتَأَلِّقةٌ تَبْهَرُ النَّظَرَ، فَوَقَفْتُ أَتَأَمَّلُها وَقَدْ مَرَّتِ الأَحْلامُ بِخاطِري: هَلْ سَأُصْبِحُ رَجُلًا ثَرِيًّا وَأَعودُ إلى مونْفِليت لِأَحْظَى بِجِريس زَوْجةً لي؟ وَأَفَقْتُ مِنْ أَحْلامي عَلى صَوْتِ الرَّجُلِ يَقولُ: «أَلَمْ تَجِدْ شَيْئًا بَعْدُ؟»

فَصَرَخْتُ فَرَحًا: «بَلى! بَلى! لَقَدْ وَجَدْتُها.»



صَعِدَتْ بي الدَّلْوُ أَسْرَعَ مِمَّا كانَتْ تَهْبِطُ. وَتَخَيَّلْتُ أَنِّي أَسْمَعُ جرِيس تَقولُ: «لَقَدْ كانَتِ الماسةُ في حَوْزَةِ رَجُلٍ شِرِّيرٍ، وَلَنْ تَجْلِبَ لَكَ سِوَى الشَّقاءِ.» ثُمَّ تَوَقَّفَتِ الدَّلْوُ بي قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إلى حافَةِ البِئْرِ، وَسَأَلَ الرَّجُلُ بِلَهْفَةٍ: «أَيْنَ الماسةُ؟ أَيْنَ الماسةُ؟ أَعْطِني إيَّاها.»

وَرَأَيْتُ وَجْهَ إلْزِفِير يُطِلُّ مِنْ أَعْلَى، فَأَمْسَكْتُ بِالماسةِ بَيْنَ أَصابِعي لِأُرِيَها لَهُ. وَكِدْتُ أَنْ أُناوِلَها لِلْحارِسِ، وَلكِنَّ شَيْئًا ما في نَظْرَتِهِ أَوْقَفَني وَتَذَكَّرْتُ عَلاءَ الدِّينِ الَّذي رَفَضَ تَسْليمَ المِصْباحِ حَتَّى يَأْمَنَ وُصولَهُ على سَطْحِ الأَرْضِ.

قالَ الرَّجُلُ: «مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُناوِلَني الماسةَ الآنَ حَتَّى تَتَمَكَّنَ يَداكَ مِنَ الإمْساكِ بِالدَّلْوِ.»

قُلْتُ: «لا، لا. دَعْني أَصْعَدُ أَوَّلًا.»

فَصَرَخَ غاضِبًا: «أَعْطِني الجَوْهَرَةَ.»

فَانْتَهَرَهُ إلْزِفِير قائِلًا: «دَعْهُ يَتَصَرَّفُ كَما يَشاءُ. إنَّها جَوْهَرَتُهُ يَفْعَلُ بِها ما يُريدُ، وَسَيَكونُ لَكَ ثُلُثُ المَبْلَغِ الَّذي سَنَحْصُلُ عَلَيْهِ بَعْدَ بَيْعِها، كَما سَبَقَ أَنْ وَعَدْتُكَ.»

رَدَّ الرَّجُلُ غاضِبًا: «هذِهِ الجَوْهَرةُ لَيْسَتْ مِلْكًا لِأَيٍّ مِنْكُما. فَالبِئْرُ بِئْري، وَلَقَدْ سَمَحْتُ لَكَ بِالهُبوطِ فِيها على أَنْ نَقْتَسِمَ ثَمَنَ الجَوْهَرةِ بَعْدَ بَيْعِها، أَمَّا

هذا الصَّبِيُّ فتكْفيهِ قِطْعَةُ نُقودٍ ذَهَبِيَّةٌ.»

رَدَّ إلْزِقْير غاضِبًا: «لا تكُنْ غَبِيًّا، إنَّ هذا الصَّبِيَّ سَيَأْخُذُ نَصيبَهُ كامِلًا.»

قالَ الرَّجُلُ ساخِرًا: «ها، ها! مَنْ مِنَّا الغَبِيُّ؟ أَنا أمْ أَنْتَ؟ إنِّي أَعْرِفُ أَنَّ اسْمَكَ إلْزِقْير وَأَنَّ هُناكَ مُكافأَةً بِمَبْلَغِ خَمْسينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيْكَ، وَكَذلِكَ مُكافأَةً بِمَبْلَغِ عِشْرينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ على الصَّبِيِّ. إنَّكُما سَجينانِ هُنا وَلَنْ تَتْرُكا هذِهِ الغُرْفَةَ حَتَّى تَكونَ الماسةُ في قَبْضَةِ يَدي.»

أَخْفَيْتُ الماسةَ في مَأْمَنٍ داخِلَ مَلابِسي وَعَزَمْتُ أَنْ أُناضِلَ مِنْ أَجْلِها بِكُلِّ ما في وُسْعي.

نَظَرْتُ إلى أَعْلَى فَإذا بِالرَّجُلِ يَشْهَرُ مُسَدَّسَهُ، فَصَرَخْتُ بِإلْزِقْير مُحَذِّرًا، فَهَدَّدَهُ الرَّجُلُ قائِلًا: «لَوْ تَحَرَّكْتَ فَسَأُطْلِقُ عَلَيْكَ النَّارَ، وَأَفوزُ بِجائِزَةِ الخَمْسينَ جُنَيْهًا.» ثُمَّ أَطْلَقَ النَّارَ.

كانَ إلْزِقْير واقِفًا عَلى الجانِبِ المُقابِلِ لَهُ مِنَ البِئْرِ. وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الرَّجُلَ لا بُدَّ أَنْ يُصيبَهُ لِقُرْبِ المَسافةِ بَيْنَهُما، إلَّا أَنَّ الرِّصاصةَ طاشَتْ وَأَصابَتْ جانِبَ البِئْرِ وَنَجا إلْزِقْير، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ عَلى الرَّجُلِ وَأَحاطَ عُنُقَهُ بِيَدَيْهِ ضاغِطًا عَلَيْهِ، وَكانَ الرَّجُلُ أَصْغَرَ سِنًّا مِنْ إلْزِقْير، وَلكِنَّ إلْزِقْير كانَ يَفوقُهُ قُوَّةً وَمَهارةً.

وَنَشِبَ بَيْنَهُما صِراعٌ رَهيبٌ، وَكانَ إلْزِقْير يُناضِلُ نِضالَ الحَياةِ أَوِ المَوْتِ.

وَاسْتَطَعْتُ الخُروجَ مِنَ البِئْرِ بِمَشَقَّةٍ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ إِلْزِفِير لَمْ يَعُدْ في حاجةٍ لِمُساعَدَتي. فَقَدْ كانَتْ تَلوحُ عَلى وَجْهِ الحارِسِ سِماتُ الإِعْياءِ وَالدَّهْشَةِ، فَقَدْ كانَ يَتَوَقَّعُ فَوْزًا سَهْلًا. فَإِذا بِهِ أَمامَ خَصْمٍ جَبَّارٍ عَنيدٍ. وَأَمْسَكَ إِلْزِفِير بِهِ وَرَفَعَهُ لِيُلْقِيَهُ عَلى الأَرْضِ وَلكِنَّ الرَّجُلَ طَوَّقَهُ بِذِراعَيْهِ، مُحاوِلًا أَنْ يَقْبِضَ عَلى عُنُقِهِ بِيَدَيْهِ، فَدَفَعَهُ إِلْزِفِير عَلى الأَرْضِ فَلَمْ يَسْقُطْ بَلْ تَقَهْقَرَ بِضْعَ خُطواتٍ أَوْصَلَتْهُ إِلى حافَةِ البِئْرِ المُبَلَّلَةِ، فَانْزَلَقَتْ قَدَماهُ وَهَوَى بِجَسَدِهِ. وَحاوَلْتُ إِنْقاذَهُ مِنَ السُّقوطِ في البِئْرِ فَلَمْ أُفْلِحْ، إِلَّا أَنَّ يَدِي أَمْسَكَتْ بِالمَفاتيحِ الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً في جانِبِهِ، فَبَقِيَتْ في يَدِي وَسَقَطَ الرَّجُلَ في البِئْرِ. وَسَمِعْنا صَوْتَ ارْتِطامِ جِسْمِهِ بِالماءِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ صَمْتٌ رَهيبٌ.

قَفَزَ إِلْزِفِير بِسُرْعَةٍ في الدَّلْوِ قائِلًا: «ساعِدْني في الهُبوطِ لِأُحاوِلَ إِنْقاذَهُ.» فَفَعَلْتُ، وَوَقَفْتُ فَوْقَ حافَةِ البِئْرِ أَنْظُرُ مُنْصِتًا إِلى أَنْ صَرَخَ يَقولُ: «دَعْني أَصْعَدُ.»

صَعِدَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ ماتَ، فَقُلْتُ: «دَعْنا نُلْقِي بِالماسَةِ وَراءَهُ فَهِيَ لا تَجْلِبُ إِلَّا المَوْتَ وَالشُّؤْمَ.»

قالَ إِلْزِفِير: «لا، أَعْطِني إِيَّاها. إِنَّها جَوْهَرَتُكَ وَسَأَحْتَفِظُ بِها لَكَ، فَلَسْتُ بِحاجَةٍ لِلْمالِ.» وَأَخَذَها مِنِّي.

وَصَلْنا إِلى الفُنْدُقِ سالِمَيْنِ، وَلَمْ نَقُصَّ عَلى صاحِبِ الفُنْدُقِ ما حَدَثَ، بَلْ قُلْنا لَهُ إِنَّ أَعْمالَنا تُحَتِّمُ عَلَيْنا سُرْعَةَ الرَّحيلِ، فَأَخْبَرَنا بِوُجودِ سَفينَةٍ هُولَنْدِيَّةٍ تُوشِكُ عَلى الإِقْلاعِ إِلى هولَنْدا.

# الفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

# ضَياعُ الماسةِ

أَبْحَرْنا إلى هولَنْدا، وَوَصَلْنا إلى لاهاي، وَهي خَيْرُ مَكانٍ في العالَمِ لِتجارةِ الماسِ. وَكانَ إلْزِفِير مُلِمًّا بِبَعْضِ كَلِماتِ اللُّغةِ الهولَنْدِيَّةِ. وَبَدَأَ يَطوفُ في المَدينةِ بَحْثًا عَنْ رَجُلٍ يُمكِنُهُ شِراءُ الماسةِ. وَأَخيرًا سَمِعَ عَنْ شَخْصٍ يُسَمَّى أَلْدوبراند، مِنْ أَشْهَرِ تُجَّارِ الماسِ وَأَغْناهُمْ في لاهاي.

ذَهَبْنا إلى مَنْزِلِهِ ذاتَ مَساءٍ، قَبْلَ الغُروبِ بِساعَةٍ تَقْريبًا، فَوَجَدْنا المَنْزِلَ مُكَوَّنًا مِنْ مَبْنًى مُنْخَفِضِ الجُدْرانِ، مَطْلِيٍّ بِاللَّوْنِ الأَبْيَضِ، نَوافِذُهُ خَضْراءُ، وَلَهُ حَديقةٌ خَلْفِيَّةٌ وَيَبْعُدُ عَنِ الشَّارِعِ قَليلًا، وَوُضِعْتَ عَلى واجِهَتِهِ لافِتةٌ تَقولُ: «مَحَلُّ تِجارةٍ: بَيْعٌ وَشِراءٌ لِلْماسِ.»

فَتَحَ لَنا البابَ خادِمٌ طَويلُ القامةِ قَوِيُّ البِنْيةِ، وَلَّما عَلِمَ مَطْلَبَنا ذَهَبَ لِيُخْبِرَ سَيِّدَهُ. وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ حَضَرَ أَلْدوبراند نَفْسُهُ، وَكانَ ضَئِيلَ الحَجْمِ في حَوالَي السَّبْعينَ مِنْ عُمْرِهِ.

قالَ: «مَرْحبًا بِكُما. سَمِعْتُ أَنَّ مَعَكُما جَوْهَرةً لِلْبَيْعِ، وَأَنا لا أَشْتَري الجَواهِرَ العاديَّة، وَلا أُريدُ أَنْ أَرَى ما مَعَكُما إلَّا إذا كانَ حَقًّا ثَمينًا نادِرًا.»

كانَتِ الماسةُ في يَدي فَسَلَّمْتُها لَهُ. تَغَيَّرَتْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عِنْدَما أَخَذَها

وَشَعَرَ بِثِقْلها، ثُمَّ أَمْسَكَها بَيْنَ أَصابِعِهِ وَقالَ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ: «الضَّوْءُ هُنا لا يَكْفي، تَعالَيا مَعي.»

تَبِعْناهُ إِلى غُرْفَةٍ في الطَّابَقِ العُلْوِيِّ تُطِلُّ نافِذَتُها عَلى الحَديقَةِ الخَلْفِيَّةِ وَمِنْها بَدَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الغارِبَةِ.

جَلَسَ أَلْدوبراند إِلى مِنْضَدةٍ وَأَمْسَكَ بِالماسةِ وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُها بِدِقَّةٍ في ضَوْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ. وَكُنْتُ مُواجِهًا لَهُ وَلَمْ أَشْعُرْ نَحْوَهُ بِارْتِياحٍ، وَفَجْأَةً نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا: «ما اسْمُكَ يا فَتى، وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟» وَبِكُلِّ سَذاجَةٍ أَجَبْتُهُ،



فَرَكَلَني إِلْزِڤِير يُحَذِّرُني وَلكِنْ بَعْدَ فَواتِ الأوانِ. وَكَتَبَ الرَّجُلُ اسْمي وَاسْمَ مونْفِليت، وَبَدا ذلِكَ وَقْتَها شَيْئًا تافِهًا، وَلَمْ أَدْرِ بِأَنَّ ذلِكَ سَيكونُ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ هامَّةً في مَجْرَى حَياتي، بَعْدَ ذلِكَ.

رَدَّدَ الرَّجُلُ اسْمَ مونْفِليت ثُمَّ سَأَلَ: «وَكَيْفَ حَصَلْتَ عَلى هذِهِ الجَوْهَرَةِ؟» وَأَسْرَعَ إِلْزِڤِير يَقولُ: «لَمْ نَحْضُرْ هُنا لِلاسْتِجْوابِ، بَلْ لِبَيْعِ الجَوْهَرَةِ، فَهَلْ تَسْمَحُ وَتُخْبِرُنا بِما تُقَدِّرُهُ ثَمَنًا لَها، وَكَفاكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنا إِنْجِليزِيَّان، وَأَنَّ هذِهِ الماسَةَ مِلْكٌ شَرْعِيٌّ لَنا.»

قالَ الرَّجُلُ: «نَعَمْ، نَعَمْ. وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ أَفْحَصَها جَيِّدًا، لِأَنّي أَجْهَلُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِها، فَقَدْ تَكونُ مُزَيَّفَةً.» ثُمَّ صَبَّ عَلَيْها بَعْضَ نُقَطٍ مِنْ سائِلٍ أَخْضَرِ اللَّوْنِ وَحَكَّها بِحَجَرٍ أَسْوَدَ، وَحينَئِذٍ تَجَمَّدَتْ أَساريرُهُ وَكَأَنَّها قَدْ نُحِتَتْ مِنَ الصَّخْرِ.

قالَ: «اسْمَعا، وَخاصَّةً أَنْتَ يا جون، يُؤْلِمُني أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ هذِهِ الماسَةَ لَيْسَتْ حَقيقيَّةً بَلْ هيَ قِطْعَةُ زُجاجٍ صُنِعَتْ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ، وَيُمْكِنُني القَوْلُ بِأَنَّها أَفْضَلُ قِطْعَةٍ مُزَيَّفَةٍ رَأَيْتُها.»

آلَمَني أَنْ يَكونَ ما عانَيْناهُ مِنْ مَشاقَّ وَمَتاعِبَ مِنْ أَجْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الزُّجاجِ. لَقَدْ ضاعَتْ أَحْلامي بِالسَّعادَةِ وَالثَّراءِ. وَشَعَرْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ شَديدَةٍ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيا في وَجْهي وَكِدْتُ أَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ يَقولُ: «جون، جون يا بُنَيَّ لا تَحْزَنْ هكَذا، إِنَّها قِطْعَةٌ فَنِّيَّةٌ رائِعَةٌ وَسَأُعْطيكَ عَشْرَ قِطَعٍ مِنَ الفِضَّةِ ثَمَنًا لَها.»

قالَ إلْزِفِير: «لَمْ نَأْتِ إلَيْكَ نَطْلُبُ فِضَّةً، فاحْتَفِظْ بِالفِضَّةِ لِنَفْسِكَ، وَأَمَّا هذِهِ فَلا نَرْغَبُ فيها أَيْضًا.» وَأَخَذَ الماسةَ وَأَلْقى بِها مِنَ النَّافِذَةِ.

هَبَّ أَلْدوبراند مَذْعورًا ساخِطًا يَقولُ: «يا أَحْمَقُ، ماذا فَعَلْتَ؟»

رَأَيْتُ الماسةَ تَقَعُ في الحَديقةِ بِالقُرْبِ مِنْ زَهْرةٍ كَبيرةٍ حَمْراءَ. وَخَرَجْنا مِنَ المَنْزِلِ مُسْرِعَيْنِ صامِتَيْنِ وَعُدْنا إلى الفُنْدُقِ لِتَناوُلِ الطَّعامِ. وَبَيْنَما كُنَّا نَأْكُلُ نَهَضْتُ فَجْأَةً وَصِحْتُ في إلْزِفِير: «إنَّنا حَقًّا غَبِيَّان. إنَّ الجَوْهَرةَ ماسةٌ ثَمينةٌ، وَلَيْسَتْ مُزَيَّفةً، وَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنا ذلِكَ التَّاجِرُ.»

نَظَرَ إلَيَّ إلْزِفِير مَلِيًّا (طَويلًا) ثُمَّ قالَ: «قَدْ تَكونُ عَلى حَقٍّ، وَلكِنْ ما العَمَلُ الآنَ وَقَدْ أَلْقَيْتُ بِالماسةِ مِنَ النَّافِذةِ؟»

قُلْتُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ المَكانَ الَّذي سَقَطَتْ فيهِ بِالحَديقةِ. هَيَّا بِنا نَسْتَرِدُّها.»

قالَ: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أَلْدوبراند رَأَى ذلِكَ أَيْضًا وَعَرَفَ مَكانَها؟» تَذَكَّرْتُ كَيْفَ أَطَلَّ أَلْدوبراند مِنَ النَّافِذةِ حِينَ سَقَطَتِ الماسةُ، وَقُلْتُ: «لا أَدْري وَلكِنْ دَعْنا نَذْهَبُ إلى هُناكَ لِنَرى وَنَتَأَكَّدَ. لَقَدْ سَقَطَتْ عِنْدَ ساقِ زَهْرةٍ حَمْراءَ كَبيرةٍ. هَيَّا بِنا.»

صَمَتَ إلْزِفِير لَحْظةً وَقالَ: «أَشْعُرُ بِأَنَّكَ عَلى صَوابٍ، وَأَنَّ الماسةَ جَوْهَرةٌ ثَمينةٌ، وَلكِنِّي أَشْعُرُ بِأَنَّنا سَنكونُ أَسْعَدَ حَظًّا بِدونِها. فَمُنْذُ عَلِمْنا بِوُجودِها، وَنَحْنُ لا نُصادِفُ غَيْرَ المَتاعِبِ. وَها نَحْنُ أُولاءِ غَرِيبانِ بَعيدانِ



عَنْ وَطَنِنا وَقَدْ ماتَ رَجُلانِ. أَفَلَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ نَتْرُكَها حَيْثُ سَقَطَتْ؟»
وَلَكِنِّي أَرَدْتُ اسْتِرْجاعَ الجَوْهَرَةِ، وَأَقْنَعْتُ إِلْزِفير بِمَشَقَّةٍ أَنْ يَذْهَبَ مَعي لِاسْتِرْدادِها.

كانَ اللَّيْلُ مُتَأَخِّرًا حَيْنَ تَسَلَّقْنا جِدارَ حَديقَةِ مَنْزِلِ أَلْدوبراند. وَأَسْرَعْتُ إِلى الزَّهْرَةِ الحَمْراءِ، وَلكِنَّ الماسةَ كانَتْ قَدِ اخْتَفَتْ، فَبَحَثْتُ حَوْلَ المَكانِ دونَ جَدْوَى. لَقَدْ أَخَذَها أَلْدوبراند. وَشَخَصْتُ بِبَصَري إِلى أَعْلى فَإِذا بِنُورٍ يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَتِهِ.

تَسَلَّقْتُ الحائِطَ إِلى النَّافِذَةِ، وَتَطَلَّعْتُ إِلى الدَّاخِلِ، فَرَأَيْتُ أَلْدوبراند جالِسًا أَمامَ مِنْضدةٍ وَأَمامَهُ الماسَةُ: ماسَتي الثَّمينةُ وَمَعَها عِدَّةُ ماساتٍ أُخْرَى، وَلكِنَّها كانَتْ تَفوقُها جَميعًا بَهاءً وَحَجْمًا، وَكَأَنَّما كانَتْ تُناديني وَتقولُ: «اُنْظُرْ، أَلَسْتُ أَنا مَلِكةً عَلى كُلِّ هذِهِ؟ أَلا تَأْخُذُني؟»

وَشَعَرْتُ بِيَدِ إِلْزِفير تَجْذِبُني مِنْ ذِراعي وَهوَ يَقولُ: «تَعالَ، تعالَ. اِتْرُكْها فَلَنْ تَجْلُبَ لَنا سِوَى الشَّقاءِ وَالمَتاعِبِ. هَيَّا بِنا يا جُون.»

وَلكِنِّي لَمْ أَسْتَمِعْ لِكَلامِهِ، وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسي عَلى النَّافِذةِ فَسَقَطْتُ داخِلَ الحُجْرةِ. وَهَبَّ أَلْدوبراند مَذْعورًا يُنادي: «النَّجْدةَ! النَّجْدةَ! لُصوصٌ، لُصوصٌ.» فَأَسْرَعْتُ إِلى المِنْضَدَةِ وَوَضَعْتُ يَدي فَوْقَ يَدِ التَّاجِرِ لِأُمْسِكَ الماسةَ، وَفي اللَّحْظةِ نَفْسِها أَسْرَعَ سِتَّةٌ مِنَ الخَدَمِ بِالدُّخولِ وَأَمْسَكوا بِنا.

# الفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ

# السِّجْنُ

قُدِّمْنا لِلْمُحاكَمةِ، وَلَمْ يُصَدِّقِ القاضي رِوايَتَنا، وَلا أَلُومُهُ على ذلِكَ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَليلةٍ أُودِعْنا السِّجْنَ.

مَضَى عَلَيْنا أُسْبوعٌ في السِّجْنِ، ثُمَّ حَضَرَ الحارِسُ صَباحَ يَوْمٍ وَأَخَذَني إلى كُوخٍ صَغيرٍ، وَأَجْلَسَني عَلى كُرْسيٍّ في وَسَطِ الكوخِ، ثُمَّ أَوْثَقَني بِالحِبالِ وَأَحْكَمَ رِباطي إلى الكُرْسِيِّ.

رَأَيْتُ في أَرْضِ الغُرْفةِ نارًا مُوقَدةً، كَما شَمَمْتُ رائِحةَ شَيْءٍ كَريهةً فَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ مِمَّا قَدْ يَفْعَلونَ بي. وَصَدَقَ شُعوري، فَقَدْ وَسَموا بِالنَّارِ عَلى وَجْهي حَرْفَ Y وَهوَ أَوَّلُ حَرْفٍ مِنَ الكَلِمةِ الهولَنْديَّةِ الَّتي سُمِّيَ بِها السِّجْنُ، وَكانَتْ كَذلِكَ شِعارَ أُسْرةِ مُوهُون.

وَبَعْدَ بِضْعةِ أَيَّامٍ الْتَقَيْتُ بِالْزِفير، وَكانَ أَيْضًا يَحْمِلُ العَلامةَ نَفْسَها. وَهكَذا تَعاقَبَتِ السِّنونُ، وَكُلُّ يَوْمٍ مِثْلِ سابِقِهِ: نَخْرُجُ لِلْعَمَلِ وَنَعودُ لِنَأْكُلَ وَنَنامَ وَنَنْسَى.

# الفَصْلُ العِشْرونَ

# العاصِفةُ

في السَّنةِ العاشِرةِ، حَضَرَ الحُرَّاسُ كَعادَتِهِمْ، وَاقْتادُونا. إلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَسيروا بِنا إلى مَكانِ العَمَلِ المُعْتادِ، بَلْ تَقابَلْنا مَعَ فِرْقةٍ مِنَ الجُنْدِ وَسِرْنا مَعَهُمْ إلى لاهاي. وَهُناكَ عَلِمْنا بِأَنَّنا سَنُبْحِرُ مِنْها إلى جاوَه، الَّتي تَبْعُدُ آلافَ الكيلو مِتْراتِ عَنِ الهِنْدِ نَفْسِها، حَيْثُ سَنَعْمَلُ في حُقولِ قَصَبِ السُّكَّرِ التَّابعةِ لِلْحُكومةِ الهولَنْدِيَّةِ. وَبِهَذا النَّبَإِ انْتَهَتْ أَحْلامي، فَلَنْ أَسْتَطيعَ بَعْدَ ذلِكَ رُؤْيةَ جريس أَوِ العَوْدةَ إلى مونْفِليت. وَكُنْتُ طَوالَ عَشْرِ السِّنينَ الماضيةِ أَحْلُمُ بِالفِرارِ، وَبِأَنّي سَأَكونُ حُرًّا! وَلَكِنْ ذَهَبَتْ كُلُّ هذِهِ الأَحْلامِ هَباءً.

وَأَثْناءَ سَيْري رَأَيْتُ إلْزِفير وَقَدِ ابْيَضَّ شَعْرُهُ وَأَصْبَحَ كَهْلًا. وَتَذَكَّرْتُ صُورَتَهُ في تِلْكَ اللَّيْلةِ في هُورْهِدْ وَكَيْفَ كانَ رَجُلًا قَوِيًّا أَسْوَدَ الشَّعْرِ شَديدَ العَزْمِ وَالبَطْشِ، ثُمَّ تَخَيَّلْتُ جريس جالِسةً في الحَديقةِ، وَصَوْتُها الحُلْوُ يُحَذِّرُني من التَّمَسُّكِ بِالماسةِ الَّتي تَعْتَقِدُ أَنَّها تَجُرُّ مَعَها الشَّقاءَ وَالمَتاعِبَ. وَهَذا ما حَدَثَ فِعْلًا.

أَخيرًا وَصَلْنا إلى السَّفينةِ، وَكَمْ سَعِدْتُ أَنْ أَرى البَحْرَ ثانِيةً وَأَتَنَسَّمَ هَواءَهُ؛ وَكَمْ حَزِنْتُ لِفِراقِ شَواطِئِ قارَّتِنا المَحْبوبةِ وَالرَّحيلِ إلى أَقاصي العالَمِ.

مَرَّ عَلَيْنا يَوْمانِ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ. وَهَبَّتْ عاصِفةٌ هَوْجاءُ. وَكانَ بِالسَّفينةِ عِشْرونَ سَجينًا آخَرَ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ بَحّارَةٌ غَيْرُنا؛ وَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الخَوْفُ جَميعًا، وَلَمْ أُبالِ أَنا وَالْزِقْبِر بِالعاصِفَةِ أَوَّلَ الأَمْرِ.

اشْتَدَّتِ الرِّيحُ، وَقالَ إِلْزِقْبِر: «لَقَدْ عَرَفْتُ سُفُنًا أَقْوَى وَأَمْتَنَ مِنْ هذِهِ السَّفينَةِ حَطَّمَتْها عَواصِفُ أَقَلُّ حِدَّةً مِنْ هذِهِ العاصِفَةِ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّنا ما زِلْنا قَريبينَ مِنَ الشّاطِئِ، وَأَرْجو أَلَّا تَدْفَعَنا الرِّياحُ إِلَيْهِ حَتَّى لا نَرْتَطِمَ بِصُخورِهِ.»

وَبَيْنَما هوَ يَتَكَلَّمُ، فُتِحَ البابُ وَدَخَلَ عَلَيْنا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ مِنَ الجُنودِ الَّذينَ يُحْضِرونَ لَنا الطَّعامَ كَالمُعْتادِ، بَلْ كانَ البَحّارَ الوَحيدَ الَّذي بَقِيَ عَلى السَّفينَةِ، ثُمَّ أَلْقَى إِلَيْنا بِمِفْتاحٍ وَقالَ: «خُذوهُ، وَأَسْرِعوا وَلْيَكُنِ اللهُ في عَوْنِكُمْ.»

أَدْرَكَ إِلْزِقْبِر مَعْنَى ما قالَهُ البَحّارُ، وَأَمْسَكَ بِالمِفْتاحِ قائِلًا: «إِنَّ السَّفينَةَ تَغْرَقُ، وَقَدْ أَعْطونا الفُرْصَةَ لِنَنْجُوَ بِأَنْفُسِنا.» ثُمَّ أَطْلَقَ سَراحَ نَفْسِهِ وَسَراحِيَ وَسَراحَ الآخَرينَ، وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَ مَعَ إِلْزِقْبِر إِلى ظَهْرِ السَّفينَةِ. وَوَجَدْنا أَنْفُسَنا مَعَ بَقِيَّةِ السُّجَناءِ وَحْدَنا. أَمّا الجُنودُ وَالمَلّاحونَ فَقَدْ هَجَروا السَّفينَةَ وَرَكِبوا قَوارِبَ صَغيرَةً لِلنَّجاةِ.

أَشارَ إِلْزِقْبِر إِلى شَيْءٍ، وَصَرَخَ في أُذُني حَتَّى أَسْمَعَ صَوْتَهُ وَسْطَ ضَجيجِ العاصِفَةِ: «نَحْنُ قَريبونَ مِنَ الشّاطِئِ.»

وَمَرَّتْ مَوْجَةٌ قَوِيَّةٌ قَذَفَتْ بِنا نَحْوَ الشّاطِئِ. وَرَأَيْتُ تَلًّا يَعْلو في السَّماءِ

ذَكَّرَني بِمَشْهَدٍ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ. لَقَدْ كُنَّا في خَليجٍ، وَكُنْتُ أَرى شاطِئَ ذٰلِكَ الخَليجِ، حَيْثُ تَلْتَقي الأَمْواجُ بِالصُّخورِ.

غَمَزَني إِلْزِڤير في يَدي صائِحًا: «اُنْظُرْ.»، فَنَظَرْتُ وَأَدْرَكْتُ أَنَّنا في خَليجِ مونْفِليت، وَرَأَيْتُ وَجْهَ إِلْزِڤير يَتَهَلَّلُ فَرَحًا وَسَمِعْتُهُ يَقولُ: «يا لَلسَّماءِ! إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ الواسِعَةَ قَدْ أَدْرَكَتْنا، وَأَعادَتْنا إِلى أَوْطانِنا. إِنِّي أُفَضِّلُ المَوْتَ هُنا في خَليجِ مونْفِليت، عَلى أَنْ أَعودَ لِحَياةِ السُّجونِ. وَإِذا كانَ المَوْتُ سَيُدْرِكُنا لا مَحالَةَ فَلَيْسَ مَعْنَى ذٰلِكَ أَنْ نَسْتَسْلِمَ، وَلٰكِنْ دَعْنا نُناضِلُ مِنْ أَجْلِ الحَياةِ.»

وَقَفَ باقي السُّجَناءِ يَرْتَعِدونَ هَلَعًا، وَسَجَدَ بَعْضُهُمْ تَوَسُّلًا لِإِلْزِڤير أَنْ يُساعِدَهُمْ، في إِنْزالِ القارِبِ الوَحيدِ المُتَبَقّي بِالسَّفينَةِ، فَقالَ إِلْزِڤير بِصَوْتٍ عالٍ لِيَسْمَعَ الرِّجالُ وَسْطَ زَمْجَرَةِ الأَمْواجِ: «إِخْواني! صَدِّقوني، إِنَّ أَيَّ شَخْصٍ يُخاطِرُ بِنَفْسِهِ وَيَنْزِلُ البَحْرَ في ذٰلِكَ القارِبِ هالِكٌ لا مَحالَةَ. فَإِنِّي أَعْرِفُ طَبيعَةَ هٰذا الخَليجِ، وَإِذا أَرَدْتُمُ الحَياةَ فَابْقَوا عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ. فَفي خِلالِ نِصْفِ ساعَةٍ سَنَقْتَرِبُ مِنَ الشّاطِئِ، وَمِنْ ثَمَّ سَتَكونُ لِكُلِّ رَجُلٍ فُرْصَتُهُ في إِنْقاذِ نَفْسِهِ.»

لَمْ يَعْبَإِ الرِّجالُ بِتَحْذيرِهِ وَأَخَذوا القارِبَ، وَنَزَلوا البَحْرَ وَبَقينا نَحْنُ الاِثْنَيْنِ وَحْدَنا عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ. وَكانَ إِلْزِڤير يَقودُها نَحْوَ الشّاطِئِ. وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السّاحِلِ ارْتَفَعَ صَوْتُ المَوْجِ وَهوَ يَرْتَطِمُ بِالصَّخْرِ، وَكَثيرًا ما سَمِعْتُ ذٰلِكَ الصَّوْتَ مِنْ قَبْلُ؛ فَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُها في بَيْتِ خالَتي وَأَنا أَسْمَعُهُ!

وَمَرَّتْ في مُخَيِّلَتي أَحْداثُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتي وَقَفَ فِيها راتْسي وَرِفاقُهُ يُراقِبونَ سَفينَةً تُحَطِّمُها الأَمْواجُ، وَهُمْ لا يَقْدِرونَ عَلى نَجْدَتِها ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ إِلْزِفير يَصْرُخُ: «أُنْظُرْ! أُنْظُرْ. هُناكَ ضَوْءٌ يَتَلأْلأُ خِلالَ الظَّلامِ وَالأَمْطارِ.» وَرَأَيْتُ ضَوْءًا، ضَوْءًا يَتَلأْلأُ كَجَوْهَرَةٍ.

قالَ إِلْزِفير: «هذِهِ مَنارَةُ ماسْكيو.» فَأَدْرَكْتُ أَنَّ جرِيس لا تَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ وَأَنَّها حافَظَتْ عَلى وَعْدِها، وَما زالَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَتي، وَأَنِّي في الطَّريقِ إِلَيْها، وَلكِنَّهُ طَريقٌ مَحْفوفٌ بِالمَخاطِرِ، يُهَدِّدُ بِالمَوْتِ!

اِقْتَرَبْنا جِدًّا مِنَ السَّاحِلِ وَما زالَتِ الأَمْواجُ تَعْلو وتُزَمْجِرُ فَوْقَنا. وَرَأَيْنا عَلى السَّاحِلِ نُورًا أَزْرَقَ؛ فَقَدْ كانَ النَّاسُ يَسْتَعِدُّونَ لِتَقْديمِ النَّجْدةِ، وَلكِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُمْ بِوُضوحٍ. وَقَفوا يُراقِبونَ السَّفينَةَ وَلا يَعْلَمونَ أَنَّها تَحْمِلُ شَخْصَيْنِ فَقَطْ، وَأَنَّ الشَّخْصَيْنِ مِنْ أَبْناءِ بَلْدَتِهِمْ مونْفِليت.

أَدارَ إِلْزِفير دَفَّةَ السَّفينَةِ نَحْوَ النُّورِ الأَزْرَقِ، وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ الشَّاطِئِ امْتَزَجَ صَوْتُ الرِّياحِ الصَّاخِبَةِ بِصَوْتِ الأَمْواجِ المُرْتَطِمَةِ بِالصُّخورِ، وَأَحْدَثا ضَجَّةً رَهيبَةً.

قالَ إِلْزِفير: «اسْتَعِدَّ!» فَأَمْسَكْتُ بِشَيْءٍ مَا وَجَدْتُهُ قَريبًا مِنِّي، وَغَطَّتِ الأَمْواجُ ظَهْرَ السَّفينَةِ الَّتي أَخَذَتْ تَتَحَطَّمُ قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ، ثُمَّ قالَ إِلْزِفير: «يَجِبُ أَنْ نَتْرُكَ السَّفينَةَ بَعْدَ المَوْجةِ الكَبيرَةِ المُقْبِلَةِ. أُنْظُرْ إِلَيَّ، وَعِنْدَما



أَقْفِزُ، اقْفِزْ أَنْتَ أَيْضًا، وَلْيَحْفَظْنا اللهُ.» وَشَدَّ عَلى يَدي، وَوَقَفْنا جَنْبًا إلى جَنْبٍ نَنْظُرُ، وَقَدْ بَدا الماءُ بَيْنَنا وَبَيْنَ السّاحِلِ كُتْلَةً بَيْضاءَ تَفورُ وَتَغْلي.

قَفَزْنا، فَوَقَعْتُ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ في بُقْعَةٍ بَلَغَ عُمْقُ المياهِ فيها مِقْدارَ مِتْرٍ. وَعِنْدَما وَقَفْتُ رَأَيْتُ صَفًّا مِنَ الرِّجالِ مُتَشابِكي الأَيْدي يُحاوِلونَ الوُصولَ إلَيَّ، وَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَصْرُخُ، وَكانَ إلْزِقْير بِجانِبي فَتَقَدَّمْنا إلَيْهِمْ مَعًا وَأَيْدينا مَمْدودَةٌ إلى مَنْ أَرادوا مُساعَدَتَنا. وَحينَئِذٍ دَفَعَتْني مَوْجَةٌ مِنَ الخَلْفِ فَسَقَطْتُ وَلكِنّي تَعَلَّقْتُ بِقِطْعَةِ خَشَبٍ عائِمَةٍ، وَأَقْبَلَ إلْزِقْير وَساعَدَني عَلى النُّهوضِ.

دَوّى صَوْتُ الأَمْواجِ في أُذُني، وَسَمِعْتُ صُراخَ الواقِفينَ عَلى الشّاطِئِ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِمَنْ يُمْسِكُ بِيَدي.

# الفَصْلُ الحادِي وَالعِشْرونَ

## البَيْتُ

مَضَتْ عِدَّةُ ساعاتٍ وَأَنا غارِقٌ في نَوْمٍ عَميقٍ وَلا أَدْري بِما حَوْلي، وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُني راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ قَريبٍ مِنَ المِدْفَأَةِ. وَرَأَيْتُ رَجُلَيْنِ جالِسَيْنِ بِالقُرْبِ مِنَ المِنْضَدةِ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُما يَقولُ: «لَقَدِ اسْتَيْقَظَ، وَسَوْفَ يَعيشُ وَيُخْبِرُنا بِقِصَّتِهِ. أَعْطِهِ شَرابًا ساخِنًا، فَاللَّيْلَةُ بارِدَةٌ جِدًّا. أَتَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَطَأْ عَتَبَةَ هذا الفُنْدُقِ مُنْذُ تَرَكَهُ إِلْزِقِير، أَيْ مِنْ حَوالَي عَشْرِ سَنَواتٍ؟»

صَرَخْتُ: «أَيْنَ هوَ؟» وَجَلَسْتُ وَجَعَلْتُ أَتَلَفَّتُ حَوْلي عَلَّهُ يَكونُ نائِمًا بِالقُرْبِ مِنِّي.

قالَ الرَّجُلُ: «هَدِّئْ رَوْعَكَ يا هذا، وَعُدْ إِلى الرُّقادِ وَالنَّوْمِ.» ثُمَّ اسْتَدارَ إِلى الرَّجُلِ الآخَرِ وَقالَ: «إِنَّهُ يَهْذي.»

قُلْتُ: «كَلَّا، أَنا لا أَهْذي! أَنا في كامِلِ وَعْيي، وَأُريدُ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ إِلْزِقِير بلُوك؟»

تَبادَلَ الرَّجُلانِ النَّظَراتِ وَنَهَضَ أَحَدُهُما وَأَقْبَلَ نَحْوي عِنْدَما نَطَقْتُ اسْمَ إِلْزِقِير بلُوك، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ راتْسي.

سَأَلَني: «مَنْ أَنْتَ؟ هَلْ تَعْرِفُ إِلْزِفْير بلُوك؟»

قُلْتُ: «أَلا تَعْرِفُني يا راتْسي؟ إِنِّي أَتَذَكَّرُكَ رَغْمَ أَنَّني تَرَكْتُ هذِهِ البِقاعَ مُنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ. بِرَبِّكَ أَخْبِرني أَيْنَ إِلْزِفْير؟»

أَمْسَكَ راتْسي بِيَدَيَّ وَانْهالَ عَلَيَّ بِالأَسْئِلَةِ: «أَيْنَ وَمَتَى وَكَيْفَ؟»

وَلكِنِّي قُلْتُ: «قَبْلَ أَنْ أَقولَ أَيَّ شَيْءٍ، قُلْ لي أَنْتَ أَيْنَ إِلْزِفْير.»

قالَ: «لا أَعْلَمُ.»

قُلْتُ: «كَيْفَ لا تَعْلَمُ وَقَدْ كانَ مَعي، وَهوَ الَّذي أَنْقَذَني وَوَصَلَ مَعي إِلى الشَّاطِئِ؟»

عَلَتْ وَجْهَهُ الدَّهْشَةُ وَقالَ: «ماذا تَقولُ! لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّفينَةِ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَكُنْتَ وَحْدَكَ عِنْدَما قَذَفَتْ بِكَ الأَمْواجُ إِلى الشَّاطِئِ.»

عُثِرَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلى جُثَّةِ إِلْزِفْير عَلى الشَّاطِئِ، فَنَقَلوها إِلى الفُنْدُقِ وَوَضَعوها فَوْقَ المِنْضَدةِ نَفْسِها الَّتي وُضِعَتْ فَوْقَها جُثَّةُ ابْنِهِ. وَوَقَفَ الرِّجالُ حَوْلَهُ صامِتينَ، ثُمَّ انْصَرفوا واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ. وَكانَ راتْسي آخِرَ مَنْ ذَهَبَ. وَبَقِيتُ وَحْدي مَعَ صَديقي وَهُمُومي وَأَحْزاني.

كانَتِ الغُرْفَةُ مُغَطَّاةً بِالتُّرابِ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَطْرُقْها مُنْذُ ذلِكَ اليَوْمِ الَّذي

سَقَطَ فيهِ الدَّبُّوسُ. كَما كانَتْ آثارُ الشَّمْعِ لا تَزالُ باقيةً عَلى المِنْضَدةِ. وَجَلَسْتُ بِجانِبِ المِدْفَأةِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ الأفْكارِ، وَلكِنِّي شَعَرْتُ بِلَمْسةٍ خَفيفةٍ، عَلى ذِراعي، فَظَنَنْتُ أَنَّ راتْسي قَدْ عادَ، وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ فَإذا بي أَرَى شابَّةً جَميلةً فارِعةَ القَوامِ واقِفةً أَمامي تَقولُ: «جُون، جُون! أَلا تَتَذَكَّرُني؟ أَلَمْ تَرَ الشَّمْعَةَ المُضاءةَ؟ أَلَمْ تَتَذَكَّرْ أَنَّ لَكَ في هذِهِ الدِّيارِ صَديقةً تَنْتَظِرُكَ؟»

تَناوَلْتُ يَدَها قائِلًا: «عَزيزَتي جريس! لَمْ أَنْسَ شَيْئًا، وَما زِلْتُ أُكِنُّ لَكِ كُلَّ حُبٍّ وَإجْلالٍ. وَلكِنْ وا أَسَفاه لَيْسَ هذا بِمَكانٍ يَسْمَحُ لي أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنِ الحُبِّ. فَأَنْتِ سَيِّدةٌ كَريمةٌ، وَأَنا سَجينٌ أَحْمِلُ وَصْمةَ عارِ السِّجْنِ.» وَأَشَرْتُ إلى العَلامةِ الَّتي في وَجْهي.

قالَتْ: «لا تَتَكَلَّمْ عَنِ الثَّراءِ، فَالرِّجالُ لا يَصْنَعُهُمُ الذَّهَبُ أَوِ الجَواهِرُ. لَقَدْ عُدْتَ ثَرِيًّا بِالأَخْلاقِ وَالشَّرَفِ.»

وَجَلَسْنا مَعًا بِجانِبِ المَوْقِدِ نَتَحَدَّثُ. وَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْ تِلْكَ المَرْأَةِ الَّتي اتَّسَعَ قَلْبُها الكَبيرُ لِحُبِّ رَجُلٍ حَقيرٍ مِثْلي.

# الفَصْلُ الثَّاني وَالعِشْرون
# الخاتِمةُ

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ القَليلِ مِنَ الحَديثِ عَنِ الماسةِ وَمَصيرِها. فَقَدْ وَصَلني، ذاتَ يَوْمٍ، خِطابٌ مِنْ أَحَدِ المُحامينَ في لاهاي يَقولُ إنَّ تاجِرًا يُسَمَّى أَلْدوبراند أَوْصَى لي بِثَرْوَتِهِ بَعْدَ مَماتِهِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَثَةٌ، وَقالَ في وَصيَّتِهِ إنَّهُ أَرادَ أَنْ يَرُدَّ، لِجُون تِرِنْشارد مِنْ مونْفِليت، مالًا حَصَلَ عَلَيْهِ عَنْ طَريقِ الكَذِبِ وَالخِداعِ، فَقَدِ ابْتاعَ مِنْهُ ماسةً وَلَمْ يُعْطِهِ ثَمَنَها الحَقيقيَّ، وَأَكَّدَ أَنَّ سُوءَ الحَظِّ لازَمَهُ بَعْدَ الحُصولِ عَلى الماسةِ، وَعَزا ذلِكَ إلى الخُدْعةِ الَّتي ارْتَكَبَها. وَقَدْ أَرادَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَيُعيدَ الحَقَّ إلى صاحِبِهِ، بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَهكَذا اسْتَرْدَدْتُ ثَمَنَ الماسةِ، وَكَما نَصَحَتْني جرِيس أَنْفَقْنا كُلَّ ما وَصَلَ إلَيْنا مِنْ مالٍ في سَبيلِ البِرِّ وَالإحْسانِ.

وَكُنَّا نَتَنَزَّهُ أَحيانًا في الغابةِ، أَنا وَزَوْجَتي جرِيس وَحَوْلَنا أَطْفالُنا الصِّغارُ: جُون، وجرِيس، وإلْزِفير. وَفي وَقْتِ الغُروبِ كانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَقَعُ عَلى التِّلالِ المُحيطةِ بِنا، فَتَكْسُوها بِحُلَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ حَمْراءَ، وَعِنْدَما يَأْتي اللَّيْلُ بِخُطُواتِهِ الصَّامِتةِ وَيَنْشُرُ ظِلالَهُ عَلى المَزارِعِ وَالحُقولِ الخَضْراءِ. كانَ يَنْبَعِثُ مِنَ البَحْرِ صَوْتُ الأَمْواجِ يُعْلِنُ أَنَّها دائِمًا مُتَقَلِّبةٌ، دائِمًا باقِيةٌ.



## الروايات المشهورة

١ ـ جين إير
٢ ـ فرانكنشتاين
٣ ـ مونفليت
٤ ـ دراكولا
٥ ـ لورنا دون
٦ ـ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 103